رواية

لأجل زمن بلا مسمّى

آية كامل رباح

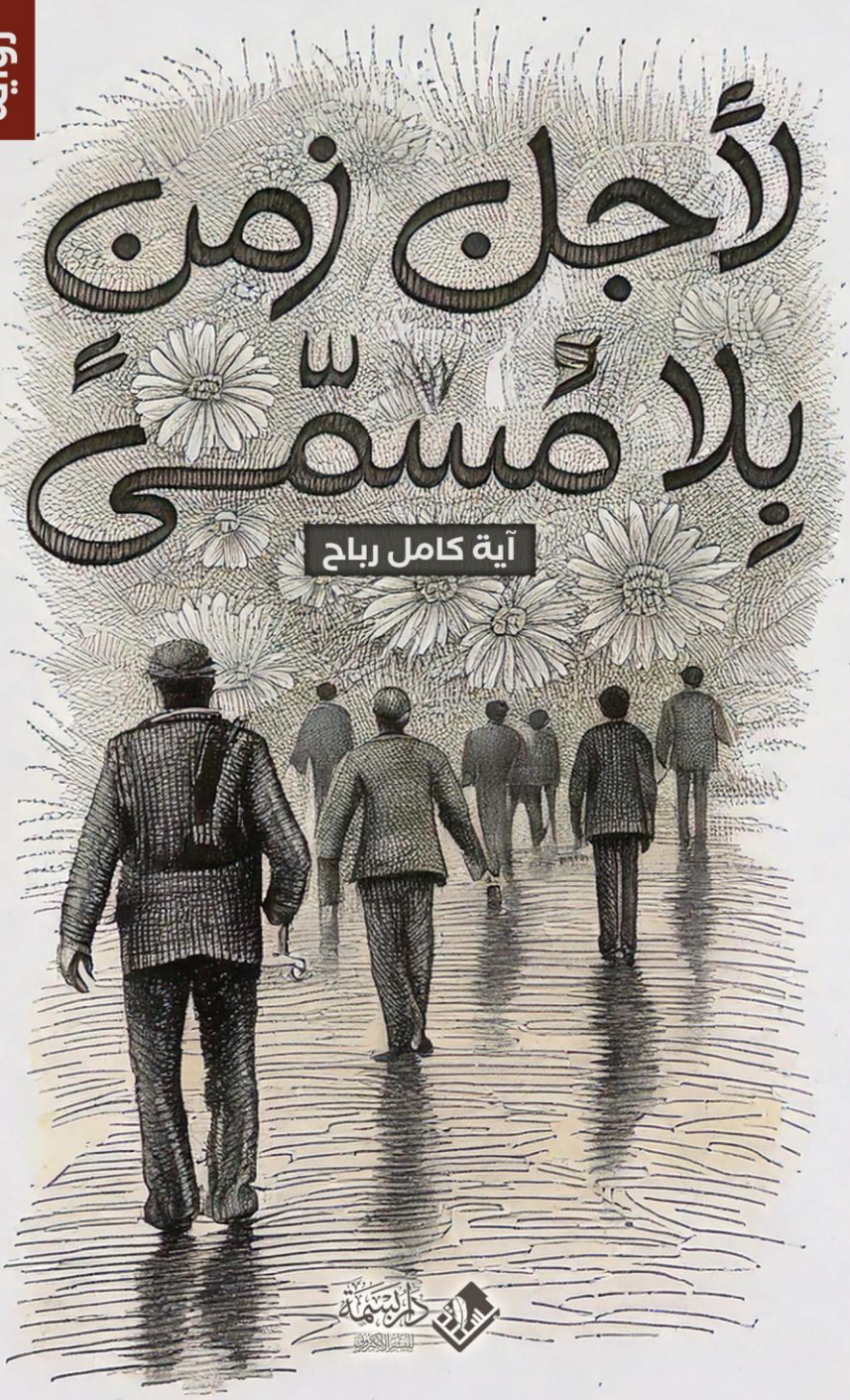

دار بسمة
للنشر الإلكتروني

لأجل زمن بلا مسمى

اسم الكتاب: لأجل زمنٍ بلا مسمًّى

لأجل زمن بلا مسمى

اسم الكاتبة: آية رباح

نوع العــــمـــل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-372-250215

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2025م / 1446هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

لأجل زمن بلا مسمى

رواية

آية رباح

كلم للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

"إلى أمي وأبي...دوماً"

تنويه لا بد منه

كتبت هذه الرواية قبل عام ونصف تقريبًا، حيث قدر لمعظم شخوصها العودة إلى ذلك المكان وتلك المدينة التي دُمِّرت لاحقًا. أنا في حقيقة الأمر لا أعرف مصير تلك الشخوص، أما زالوا أحياءً أم أمواتًا، أعرف أنهم عادوا خارج الرواية ليواجهوا الواقع المرير هناك.

كل ما أتمناه لو أني أستطيع أن أعيدهم للرواية من جديد وأغيِّر مصيرهم. لكن كما كثير من الأمور في الحياة: لقد تأخر الوقت.

ملاحظة

تدور الأحداث في أزمنة مختلفة، وقد حاولت أن أسمي كل زمن بصفة ما، زمن من حلم، زمن من خوف، زمن من ضباب، زمن من غدر، زمن من خلاص.

ولكن الزمن الأخير الآن هو زمن الموت، وذلك ما جرى بعد النقطة الأخيرة.

زمن من ضباب 2021

عندما انسكب الشاي من مريم على شرشف الطاولة، شعرت بشكل ملح بأن ذلك كان من الممكن تفاديه، وتذكرت متناسية حرقة الماء الساخن على يديها المرة الأولى التي وضعت فيها الشرشف هنا، وثبتت في منتصفه إناء الورود ثم ابتسمت. أكثر ما تتذكره من ذلك النهار البعيد هو تلك الابتسامة التي لم ترها، ولكنها شعرت بها كما يشعر المرء بنسيمٍ بارد في يوم قائظ الحر، استطاعت أن تستعيد في ذاكرتها للحظة واهية وهشّة ملمس الشمس وهي تغسل عينيها ثم تستقر فوق الورود المتفتحة في المنتصف، الرعشة في القلب والشفتين، ثم انفراجة الثغر، حدّقت طويلًا في الورود وقتها، مرّت الدقائق طويلة حيث تخيلت نفسها امرأة سعيدة سعادة تضيء إلى الأبد، وأن ذلك القلب المتعب سيملؤه الحب دومًا. لقد كانت بطريقة أو بأخرى محقة بعض الشيء وإن كان مسار الحياة فيما بعد لم يبدُ من الظاهر هكذا. لم ترغب يومًا بتغيير الشرشف منذ تلك اللحظات، والآن وبعد انسكاب الشاي كانت ردة فعلها وقرارها حاضرين، فهي لن تغيّر شيئًا، ولن تنزع ذلك الشرشف ولو ليومٍ واحد لغسله، على كل شيءٍ أن يبقى على حاله.

- مريم؟ هل أنتِ بخير؟

انتبهت لصوت صديقتها ريتا تنبهها إلى الحرق على يدها، استيقظت مريم فجأة من أفكارها ووضعت يدها تحت الماء البارد وتركته يرتطم بيدها ثم ينساب مندفعًا إلى حوض غسيل الأطباق، كان صوت الماء حافزًا على أن تركّز الآن على حاضرها، أن تحاول تغبيش تلك الذكرى التي باغتتها الآن، لو لم ينسكب الشاي الآن لربما لم تضطر لخوض دوامة المشاعر الآنية تلك، لكن الذاكرة منوطة بتلك الأحداث أو الكلمات البسيطة التي تكون كفيلة بإيقاظ كل شيء كامن سريعًا، وإن كان هادئًا وساكنًا منذ زمن بعيد. علّقت باقتضاب وهي تسترق النظر إلى ريتا والشمس التي غمرت البيت حولها:

- أنا بخير.

لطالما شعرت مريم أن الحياة لم تنصفها كما كانت تنتظر أو كما تستحق، ورغم ذلك لم تشعر بأن ذلك بسبب سذاجتها أنها انتظرت من الحياة الكثير، فهي ما زالت -رغم كل شيء- تتوقع العوض الكبير. لقد أصبحت مع تعاقب الأزمان صلبة كالفولاذ، وما زالت في أحايين كثيرة عندما تخلو مع نفسها تحت سماء النجوم، أو وهي تصلّي، تعيد بإلحاح استئناف ذلك الانتظار العظيم من الحياة كما كانت لحظة حدقت طويلًا في الورود قبل زمنٍ، إلى أن غابت الشمس وسحبت معها أشعتها من على وجهها والورود، وعمّ ظلٌّ بارد وناعس في البيت، ربما

كان ذلك في تشرين أو أيلول، لكنه حتمًا في الخريف، خريف هذه البلاد الملبدة بالحزن والغيوم.

صاحت ريتا بمريم مجددًا:

- بماذا كنتِ تفكرين؟ يبدو عليكِ الشرود يا مريم، ألا زال الحرق يؤلمكِ؟

ثم أضافت وهي تناول مريم منديلًا لتنشيف يديها:

- لقد اهترأت هذه الورود يا مريم.. لماذا تبقينها هنا؟ كما أن الشرشف صار متسخًا، ألا تزالين تحتفظين ببعض الأمل؟

كان جواب مريم حاضرًا، ومقتضبًا وحادًّا، وقد دربت نفسها عليه لسنوات طويلة كي لا تغالبها الدموع بعد الآن:

- لا.

خلال السنين التي مضت كان الضوء الخافت للشمس الذي رآه الناس آخر مرة وهو ينسحب عن وجهها وينزلق إلى الطاولة ثم إلى الأرض يخبو كل يوم، صار العالم كله ليلًا، لكنها بقت تقاوم بطريقة ما، تبحث عن بعض الأشعة التي تغزلها وتضعها في عينيها كما تضع الكحل، تجعل على وجنتيها الكثير من الضوء الأحمر، وعلى شفتيها

تتلو دومًا بعض آيات القرآن كي تغرس ابتسامةً ما تجعل نجاتها في الحياة أمتن، وعبورها فيما تبقى منها ثابتًا، تمضي الأيام وهي لا تعرف إن كانت قد نجحت في اختبارات الحياة الصعبة لها أم لا.

- عليكِ أن تكتبي يا مريم.. حتى تصير الأفكار كلماتٍ وترحل عن روحك وتبتعد في طرقٍ أخرى، لطالما نجحت بذلك وتحررتِ من تجاربك المؤلمة، لكنكِ ترفضين الكتابة عن هذه التجربة، لماذا لا تحاولين؟

تنهَّدت ريتا بعمق ثم أضافت وهي تحدق أيضًا ناحية الشمس التي تغرب عبر النافذة:

- كما كنتِ تفعلين دائمًا.

هناك حيث وقفت كلٌّ من ريتا ومريم في منتصف منزل مريم الصغير، امتد أمامهما جدار كبير تعلقت عليه صور كثيرة من الماضي، على يمين الصور مئات من أقصوصات ورقية حيث وضعت عليها مريم أفكارها وهواجسها كما نصحتها طبيبتها النفسية كوسيلة للتعبير والنسيان. كل ورقة جديدة تُضاف تغرس فيها مريم دبوسًا وتذرف دمعة وهي تقسم "سأنسى".

بيتٌ صغير، صالون مفتوح على مطبخ متواضع، هناك على اليمين يوجد درج خشبي ضيق يُفضي إلى سريرٍ موضوع على طابق خشبي يُشبه عِلّية صغيرة، "ليل وأوضة منسية، وسلم داير بالدار، والعلية مشتاقة لحب وهم جديد". ترددها مريم لمن يسألونها لتصف بيتها، تغنيها بصوتها وتضحك، لأنها لا تحب صوتها، وتعشق في المقابل صوت فيروز وكل أغانيها.

جلستا تشربان الشاي، بقيت مريم تشد يدها إليها وقد صارت حمراء دون أن تشعر بالألم. لقد علمتها الحياة دون استعارات للألم النفسي ودون مجازات ومبالغات أن الروح عندما تتألم تفقد أوجاع الجسد أهميتها، لقد كان حدث تبلُّل ذلك الشرشف حيث وضعت منذ زمن ورود حبيبها الأول محمد التي ذبلت، أهم من حدث احتراق يدها، فلقد استيقظ جرحٌ في الذاكرة، يوجعها أكثر من ذلك الحرق العابر بكثير.

تمتمت ريتا بصوت خافت شيئًا ما عن الطقس، ثم عندما لم تعرها مريم انتباهًا كافيًا اكتفت بتأمل آثار الشمس في البيت، وقالت بصوتٍ أعلى:

- أحب بيتك، هنا أشعر بروح خفية، هناك دفءٌ ما يسكن هذه المساحة الضيقة التي تُنسيني ما ينتظرني في الخارج...

كانت ريتا تضغط بيدها على كوب الشاي وهي تخاطب مريم:

- الاغتراب يا مريم موجع، كم مضى على وجودك هنا؟ سنوات كثيرة، أليس كذلك؟ وفي كل مرة نلتقي أشعر أنك كأنك قدمتِ البارحة.. هل صارت الحياة أخفّ وطأة؟ لا أعتقد.. ولكني أردت أن أشكرك لأن بيتك كان دومًا مفتوحًا لي ولقلبي..

بدا كلام ريتا لمريم مفاجئًا، ليس لمحتواه، فمريم تعرفه وتحفظه عن ظهر قلب، ولكن ربما لتوقيته، شعرت مريم كما لو أن ريتا تخفي عنها سرًّا، ولكن لم يكن لديها ما يكفي من الطاقة لترد أو تسأل، اكتفت بأن سكبت في كوبها مزيدًا من الشاي.

تابعت ريتا بنفس نبرة الصوت العميقة:

- ألا تعتقدين أن الغربة هي سبب كل هذا الألم يا مريم؟ ألا تريدين أن تعترفي؟

بدا على مريم الانفعال وقد خرجت عن صمتها وشرودها:

- أنت تعرفين يا ريتا أن للغربة بكل آلامها أقلَّ الأثر في ذلك الألم في روحي، ليست هذه البلاد ما عمَّق وجعي، وأعظَم جرح عشته هنا كان بسببه، ليس بسبب المكان، لكني لا أنكر أن اغترابي

لم يقلَّ رغم تتابع السنين، لكنك تعرفينني، أكره تعليق أي شيء على شماعة الأمكنة.

عمّ صمتٌ قصير، يكسره من حين لآخر صوت الرياح وهي تعبر بين أوراق الشجر في الخارج.

تململت مريم في جلستها وضمت بيديها ساقيها إلى جسدها الذي انحنى كمن يتأهب لصدّ هجمة ما، أرادت أن تقول شيئًا عن ذلك النهار، عن تلك النهارات البعيدة في وطنها، والتي اعتقدت لسذاجة ما أن الغربة ستعطيها بعضًا منها أو جزءًا من رائحتها، حاولت أن تشتريَ القهوة ذاتها والشاي ذاته، أن تستخدم نفس الأوعية، ولكن دون جدوى، لقد ظلت نهارات الوطن حلمًا ضائعًا، إلى أن أتي نهارٌ ما حلمت فيه أنها ترى نفسها طفلة تعبر النهر وتقطف من منتصفه ورود اللوتس الذابلة، تعود إلى ضفته وتجلس هناك لتبكي قليلًا الورود الميتة، ثم تلقيها مجددًا في النهر الذي سيجرفها بعيدًا، ربما نحو مصبّه في البحر الذي يمرّ ببلادها، أو حتى يتغذى عليه السمك الماضي برحلة هجرته إلى هناك.

عندما استيقظت من حلمها وجدته يطرق الباب السفليّ لمنزلها، محمد حبيبها الأول وحبيب وطنها، يطرق بابها وقلبها معًا، وقد عبر البحار كما وعدها أخيرًا، يطرق ما تبقى في روحها من أمان ويجلب لها

ورودًا حقيقية، وليست ذابلة كتلك التي رأتها في المنام، كانت ورود زنبق وليس لوتس كتلك التي رأتها في المنام، رأت بلادها كلها وهي تقرع باب غربتها، ورائحة الأوطان تأتي معه وتغمرها. حينها في ذلك النهار بدأ شيء ينمو في غربتها، كزهرة حنون هشة وسط الشوك.. وبقيت هناك لوقت عابرٍ قبل أن تفنى تمامًا.

- تذكري يا مريم، الحنون جميل وساطع، ولكنه هش ويموت سريعًا، إنه ليس كباقي الورود، حياته حمراء وعابرة للغاية.

لطالما حدثتها أمها عن جمال الحنون وهي تروي لها عن حقول شقائق النعمان في فلسطين، حيث تمتلئ السهول على مد البصر بشتى ألوان الورود، الأحمر منها والبرتقالي والبنفسجي، ألوان تقطع المدى كقدر حاسم، كنبوءة أكيدة أنه ليس ثمة بعد هذا المدى شتاء، وأن الحياة ربيع أبديّ.

لقد كانت حياة أمها نفسها كحياة زهرة حنون جميلة ذبلت سريعًا، وبقيت مريم تستعيد كلامها كلّما قست عليها الأيام.

أزاحت مريم شعرها المائل إلى الحمرة عن وجهها، فالتمعتْ بعض الدموع في عينيها، أرادت أن تقول أشياءَ كثيرةً لريتا، صديقتها الوحيدة في منفاها المؤقت، كما كانت جارتها في وطنها، ريتا تكبرها بخمس سنوات، تجاوزت الثلاثين بقليل قبل أشهر، لديها بعض الخصل

البيضاء التي غزت شعرها، ليس بسبب العمر، ولكن بعد أن خافت في أحد الأيام عندما كانت طفلة صغيرة خوفًا كبيرًا، أُصيبت حينها برعب حقيقي ومفاجئ. بعد أن رحل الخوف نظرت إلى المرآة لتجد شكلها وقد تجاوز عمرها الحقيقيّ بكثير، وقد غاب لون شعرها الأشقر فجأة.

ريتا تتناول الشاي بصمت وتودّ لو تخبر مريم بما هي عازمة على فعله، الآن تميل الشمس إلى الغروب خلف السحب والجبال البعيدة، تعبر بعض نسمات الهواء الباردة عبر فتحة صغيرة في النافذة، طعم غريب يمتزج بالشاي والهواء، طعم مر يشبه مرارة الذكريات التي لا تستطيع مريم تمييزها الآن، أكان حقًّا في صالحها كل ما جرى؟

كسرت ريتا الصمت وقالت:

- أعلم ما تفكرين فيه يا مريم، الله سيظهر لك آياته أيضًا هذه المرة. كما في كل مرة، هل نسيتِ؟

ابتسمت مريم وهي تشرب الشاي، يتدفق الدفء إلى العروق، إلى الروح، ولمعت بذاكرتها صورتها ليلة ماتت والدتها، وقد بقيت تصلّي وتبتهل لساعات أمام نافذة غرفتها، حتى خاف عليها أهلها من أن تفقد عقلها لكنها وحدها لم تخف، كان لديها من الإيمان ما يكفل لها أن تتحدى كل الناس إذا ما اعتقدوا بشيء مخالف لها، ظلت تدعو الله بشيء واحد فقط، وهو أن تستطيع تصديق ما جرى.

- في ذلك الوقت يا ريتا كان كل شيء مختلفًا، كان للكون وجه آخر وكان للناس وجوه أخرى، أبسط ربما، كما أن السماء كانت غير هذه السماء، أتعلمين أن سماوات المدن تختلف وتتبدّل، هناك كنت أرى وجه الله بين النجوم، أصِل الغيوم ببعضها فأرى دموع الملائكة وقد صارت سحابًا، أبكي معهم، وكانت الطيور لا تغرّد فحسب ولكن تتكلّم، أسمع الطيور وكأنها تخبرني نبوءاتها الساذجة، أليست طيور تلك البلاد تحتوي في حواصلها على الشهداء كما يقولون، ألم يكونوا يخبروننا بذلك في حصص الدين وكنا لا نصدق ذلك، ولكني أنا يا ريتا كنتُ أصدّق كل ذلك، وما زلت إلى الآن.

كانت مريم تحدّث ريتا بأسلوبها ذاته كما كانت طالبة في إذاعات المدرسة. رغم كسل الصباح وملل الطلاب، فقد كانت تشدّ من يستمع إليها بأسلوبها حتى النهاية.

- لكنك لم تتغيري يا مريم، ما تزالين نفس الشخص، ولهذا ستبقى تلك الدعوات بحوزتك وكذلك لغز استجابتها.

كانت مريم قد علقت بذاكرتها الآن في ذلك الزمن، ولم تكن تنصت جيدًا لما تقوله صديقتها، رأت أمامها كما لو أن السنين بأكملها لم تمر، كيف استيقظت بعد ليالي الدعاء الطويلة تلك فجأة وقد

أصابها الهدوء وملأت ملامحها الحكمة وفهمت وصدّقت كل شيء، لم تبكِ مريم منذ ذلك اليوم على والدتها الراحلة، طار الحزن بعيدًا وحلّ مكانه يقين مطلق، وكأن مريم منذ ذلك اليوم وإلى غاية آخر أيام عمرها تنتظر لقاءً قريبًا يجمعها بوالدتها.

كانت تذهب إلى البحر وتمشي على الرمل لساعات، تشمّر عن قدميها وتجعل الزبد يطفو ويتسلق ساقيها ثم يذوب، تأتي موجة ثانية، تكرر الأمر بعينه، أصبحت قادرة على المُضي والعيش والتمتع بالبحر والذكريات. لقد ابتهلت لتفهم وفهمت، لقد فهمت أن عليها أن تعيش وحسب، وأن أمها ستكون دومًا في انتظارها على بُعد عمرٍ ونجمة.

زمنٌ من حلم 2012

الشمس تلمع في الأحداق الباكية، مضى أسبوع على العزلة في المنزل، أصوات القصف تتعالى من حين لآخر، كانت الإحصاءات في آخر تقرير إخباري قد تجاوزت الألف، تجلس مريم على فراش في زاوية المطبخ حيث قرروا الاحتماء بعيدًا عن النوافذ والشرفات، في الحرب تصير السماء غير تلك التي قد نحتمي بها، وإنما تصير السماء التي قد تلتهم الأعين الحالمة في لحظة أمانٍ زائف، تجلس مريم بجانب أمها وأخيها الوحيد «وديع» وأبيها. على الحائط توجد آثار زيت القلي وقد اتحد مع الغبار والدهان فصار عصيًّا على الزوال. تحاول مريم الدراسة، وأحيانًا تتناول دفتر مذكراتها لتخطَّ شيئًا ما بداخله، الحياة تكون أكثر مثالية وقيمة عندما يقترب الموت، في لحظات الحرب مثلًا، لم تتجاوز الخامسة عشرة بعد، من حين لآخر تهز قذيفة بعيدة البيت، العتَمة في الليل موحشة، يشعلون الشموع ويتحلقون حول بعضهم البعض، بينما تتلو والدتها القرآن، في الحرب يخافون الليالي أكثر من الصباحات، فصوت الطائرات الحربية في الليل يُشعر المرء كما لو أن القذيفة القادمة ستصيب قلبه.

كان يوم خميس عصرًا عندما قررت أمها الذهاب لشراء الخبز من أحدِ المخابز القليلة التي لا تزال تعمل في الحرب، بينما ذهب وديع

ليقف في طابور لتعبئة الماء، كانت هدنة مقتطعة، ساعة تكتظ فيها الشوارع بالناس، يتنفس الجميع الصُّعَداء، يدفن البعض موتاهم، بينما يذهب آخرون إلى المساجد ليصلوا صلواتهم، تلك التي قد تكون الأخيرة، أما المُجِبُّون فلا وقت لكي يلتقوا، لا وقت حتى للوداع.

في ذلك اليوم بقت مريم وحدها في المنزل مع أبيها المريض، إذ يُصاب بالتعب الفوري إذا ما وقف أو سار مسافات طويلة بسبب ضعف في عضلة القلب. في زاوية المطبخ ذاتها، كانت تسترق بعض الوقت في الهدنة لتنظر إلى السماء، فبالنسبة لها لا حياة بدون تلك اللحظات، اليوم الذي لم تكن فيه مريم ترفع وجهها الأسمر ناحية زرقة الأعلى حتى تدمع عيناها، لم تكن تحسبه يومًا من حياتها أبدًا، وكم مرت عليها كثير من تلك الأيام لاحقًا، حيث مكثت في القاع وبكت طويلًا، ونسيت كيف يمكن حتى الوثوق بلون السماء.

عمر المجنون الذي يعبر شارع حيهم ذهابًا وإيابا كانت قد طالته قذيفة في الأمس، سمعت مريم الناس يصلّون عليه خلال تلك الهدنة، وأصابها حزن عندما تخيلت الحارة من دونه. كان عمر ينعت الاحتلال بأبشع الألفاظ بصوت عالٍ وهو يهرول بين الناس محنيّ الظهر بشعره الأشعث، ثم يغلق فمه بيده فجأة كمن أدرك فجأة أنه لم يكن من اللائق قول ذلك، يتداول الناس أنه فقد صوابه بعد تعرضه للتعذيب في سجون الاحتلال، الناس الذين يعرفون عمر جيدًا يعلمون أنه تمر

لحظات خلال اليوم يكون فيها عاقلًا ومتيقظًا، بل وأيضًا حكيمًا، في تلك اللحظات يراه الناس مسندًا رأسه إلى أحد جدران الحي وهو يبكي طويلًا، حتى يتمنى الناس له أن يفقد عقله مجددًا. بالفعل لا يطول الصحو فيعود عمر يسير مجنونًا في الشوارع. لقد مات عمر قبل يوم واحد على رحيل والدة مريم، ذلك أمر ستذكره مريم كمتلازمة على الدوام.

الطابور طويل أمام المخبز، هناك طابور للسيدات وآخر للرجال، يتبادل الناس أخبار الحرب بأسًى.

- هل تعلم أن أبا علي قد استُشهد مع أخيه.

- لقد كانت العائلة كلها في تلك الشقة، كانوا قد أتوا إلى هذه الشقة تحديدًا للاحتماء، ظنًّا منهم أن القصف لن يطالها، ولكنها كانت مكان لقائهم الأخير..

- كان يرجو الشهادة منذ كان صغيرًا، وها قد رزقه الله إياها.. العقبى لنا.

- حتى عمر، مجنون الحي، لم يتركوه بسلام.

العبارات تنهال على أم مريم من كل مكان، في السماء يُسمع صوت عبور صارخ للطائرات الحربية بشكل مباغت، الهدنة قصيرة كحياة

وطويلة كلحظة انتظار، تحدّق أم مريم تارة إلى الطابور، وتارة إلى الساعة، وتتمنى لو تستطيع أن تعود ببعض الخبز اليوم قبل انقضاء الوقت. هناك ريح باردة في الجو رغم الشمس التي تتوسط كبد السماء، الناس جوعى، ومع ذلك كانوا يتحدثون كما لو أنهم لم يلتقوا بشرًا آخرين منذ سنين، العبارات أكثر من أرغفة الخبز، رائحة الموت أكثر حضورًا من رائحة العجين المخبوز، تلك التي قال عنها درويش أنها سبب من أسباب استحقاق الحياة على هذه الأرض.

لم تعد أم مريم أبدًا إلى البيت، ولم تتناول مريم ولا وديع ولا والدها الخبز في ذلك اليوم، كان ممزوجًا بالدم.. كان مُرًّا كطعم الحقائق الناقصة أو كفاجعة لا نفهم حكمتها ومغزاها، شيء يقسم الروح إلى نصفين دون أن يلتئما بعد ذلك في الحياة أبدًا. وهكذا ومن حينها بقيت مريم مقسومة الروح، هناك شرخ تنفذ منه الأحزان، وملغوم بالشوق والحسرة، لكن السكينة التي اجتاحتها عندما كادت روحها أن تفارق جسدها من فرط الدعاء في تلك الليلة هوّنت عليها الكثير وأبقتها واقفة كشجرة في الحياة.

لا تذكر كيف كانت ردة فعلها عندما علمت بالخبر، لكنها تتذكر تلك الصورة التي عبرت خيالها عندما كانت أمها لا تزال تقف حية في الطابور، لقد رأت مريم نفسها وحيدة، لقد شعرت بنفسها وحيدة جدًّا في تلك اللحظات دون أن تعلم تفسير ذلك الشعور المباغت،

استعاذت بالله من الشيطان الرجيم، وتابعت قراءة صفحة الدرس، لم تخبر أحدًا بذلك الشعور الذي سبق الخبر. تتذكر أنه أغمي عليها في ذلك اليوم، وأنها عندما استيقظت شمّت رائحة الليمون وماء الورد، حيث رشّت منه جارتهم على وجهها وسألت السؤال الذي لم يستطع أحد أن يجيب عليه إلى الآن:

- أين أمي؟

.....

زمن من ضباب 2021

- هل تعلمين يا مريم، أحيانًا أتخيل أن جرحك هذه المرة كان أعمق من ذلك الجرح، عندما عرفتكِ كنتِ يتيمة ووحيدة، تركتِ أيضًا والدك وأخاك وسافرتِ لتصنعي لكِ ولوديع مستقبلًا أفضل، ولكن جرح محمد لكِ هو الذي غيّر شيئًا، وكسرَ شيئًا عميقًا فيكِ.

أرادت مريم بكل قلبها لو تؤكد ذلك، لو تحكي لصديقتها عن بكائها كل يوم، عن نوبات الغضب والقهر التي تبدو كنارٍ اشتعلت في الصدر ولا شيء يطفئها ولكنها اكتفت بالقول:

- لا بد أن يزول هذا الجرح أيضًا، مشكلتي ليست مع الألم يا ريتا، مشكلتي مع مفهوم العدل الذي أبحث عنه، العدل الذي لا أومن إلا به، أومن به أكثر حتى من الجمال والخير في الكون، الجمال والخير لا يمكن أن يبقيا ويستقرا في قلب إنسان لم يحظَ بالعدل. إن بحث المظلوم عن العدل يلاحقه أينما كان وكيفما كان ومهما حاول الهرب، مهما كانت الحياة جميلة لاحقًا، ومهما التقى بأشخاصٍ خيّرين وطيبين، إذا لم يشعر بانتصار الله له وبالضرورة بالعدل، فإنه لن يتذوق طعم شيءٍ في الحياة.

ابتلعت مريم ريقها وكأنما غصة قد صعدت فجأة إلى حلقها، ثم أكملت:

- الناس الذين يظلمون غيرهم ثم لا يلقون عقابًا واضحًا ومباشرًا، يحسبون أنهم قد نجوا، ولكن لا أحد ينجو يا ريتا من هذا الدولاب، لا أحد مهما كان ذكيًّا أو متحذلقًا، هذا ما تعلمته من الحياة، حتى أنا أو أنتِ، لكل شيء قمنا به ضريبة سندفعها عاجلًا أو آجلًا.. وهو أيضًا سيدفع ثمن ذلك، وسيكون ذلك قاسيًا جدًّا عليه، أتعلمين لماذا؟ لأنه لا يعترف بأنه قام بشيء شنيع، بعمل ظالم، وهؤلاء الذين لا يعترفون إنما هم يؤجلون ألمهم، لكن ما عليكِ.. نتحدث كمحاميين كلما التقينا..

وضحكت مريم ضحكتها التي تصدح كشعاع فرح، وكانت ضحكتها هي الفاصل الحقيقي في الحوار، انضمت ريتا إلى ضحك صديقتها، غمرتهم فجأة سكينة غامضة، كانت مريم تسترق النظر لصديقتها التي لم تحظ في حياتها بإنسان مثلها، فقد كان حوار واحد معها كافيًا لتستعيد ثقتها في الناس والمستقبل.

ريتا التي تعرفها منذ أن كانت طفلة تراها وهي تمرّ في الحي فتلقي عليها السلام، لم تكن تتوقع أبدًا أن يلتقيا مجددًا في الغربة دون تخطيط من أي منهما، ريتا التي درست الحقوق والصحافة، وكانت تقطف الورود في الربيع لتنثرها في كافة أنحاء المنزل، وريتا رائحة بلادها المجروحة بالإخلاص والصداقة والمحبة التي لا تموت.

- هناك شيء أود أن أخبرك به يا مريم.

قطع صوت ريتا موجة الضحك المضيء بينهما، نظرت مريم لريتا مصغية لما سوف تقوله بخوف واضح، وتذكرت كلامها الذي بدا دون سياقٍ أول الحوار.

بدا على ريتا أنها تتجنب التواصل المباشر بالعيون مع مريم وهي تتابع حديثها:

- سوف أعود إلى الوطن، لن أبقى هنا أكثر، لقد فكرتُ كثيرًا، في الحقيقة قد تكون هذه آخر مرة نلتقي فيها. لم أكن أود إخبارك قبل ذلك يا مريم لأني لم أكن متأكدة، لكن الحياة قاسية عليَّ، كانت قاسية هناك ولكنها صارت هنا أقسى، كل هذه السنوات لم أحظَ بصديقة أخرى غيركِ كما أني فقدت حبي الوحيد هنا، أنت تعلمين كل ما جرى معي، تناقشنا كثيرًا في هذا الموضوع سابقًا، وأعلم أنك تعلمين أفكاري وقناعاتي كلها، كنت قبل الآن خائفة، أما الآن فأنا مستعدة لمواجهة كل شيء، حتى الماضي الذي تركته هناك لم يعد يخيفني. سأسافر الشهر القادم.. لم أكن أريد إخبارك، فأنا كما تعلمين أكره الوداع، ولكني لا أستطيع تحمل فكرة أن أتسبب لكِ بمزيدٍ من الحزن والأسئلة.. فأنتِ لديك ما يكفي.

بدأت الظلمة تنسدل على المدينة، المكان محاطٌ بالأمنيات المحطمة، انقبض قلب مريم انقباضة ذكّرتها بمرات عديدة سابقة عايشت فيها ذات الشعور، شعرت بالكاد بوخزة عميقة في الصدر، شدت بيديها على قلبها وانحنت للأمام كي تتحمل الوجع كما لو كانت تُصاب الآن بذبحة قلبية، مضت لحظات كانت اللحظات الأثقل في مسيرة صداقتهما التي استمرت سنينَ طويلة.

يسود الصمت ويتناهى إلى سمعهما أصوات أبواق سيارات بعيدة تعبر التل المحاذي للقرية ربما، تابعت ريتا بصوت مجروح:

- أعلم أن الأمر صعب، ولكن إذا بقيتُ يوما واحدًا إضافيًّا سأموت، سيكون فقدي بالنسبة لك في كلتا الحالتين حتميًّا، هل تفهمينني يا مريم؟

رفعت مريم أخيرًا رأسها، كان وجهها محتقنًا ووجنتاها مليئتين بالدموع، لم تتمالك نفسها لتقول كل ما تشعر به، كل ما استطاعت قوله هي أن تجيب على سؤال ريتا الأخير بآخر ما تبقى من روحها من قوة:

- لا يا ريتا.. لا أفهمك، ولا أستطيع.. أنا آسفة.

زمن من شمس 1989

ثبّت المسمار في الحائط المواجه للنافذة، أخذ يتفحّص عُلوه جيدًا، وما إذا كان باستطاعته تحمّل ثقل البرواز والذكرى والصورة. يرتدي كنزة قطنية خضراء مشمَّرَة عن ساعديه إلى ما فوق الكوع بقليل، يتصبب عرق بارد من جبهته، ويبدو كما لو أنه يقوم بعمل على قدر عميق من الجدية، أمر يتعلق بقلبه أكثر مما يبدو عليه. قبل لحظات كانت أمه قد دخلت الغرفة وهي تجلب له كأسًا من الشاي الساخن، تلف حول رأسها رغم حرارة الجو شالها الأبيض المطرز على الدوام، سواء خارج المنزل أو داخله، خلعت نعلها قرب الباب وأخذت تخطو خطوات ثقيلة فوق الحصيرة التي تفترش الأرضية، وضعت الشاي على المنضدة، سمعته يقول لها بامتنانٍ حزين كي يكسر شرودها قليلًا:

- تسلم إيديكي يامّه.

استرقت النظر إلى صورته الموضوعة داخل البرواز على السرير، ابتسامته وهو يحدّق في فراغ ما وكأنه يرى مدًى مفتوحًا من نور، قميصه.. وإنها لتتذكر ذلك اليوم الذي كوته فيه وعلقته في خزانته قبل أن يرتديه لالتقاط صورة الهُوية. حدث ذلك قبل عامين، كان من

المفترض أن يكون في الثامنة عشرة من عمره الآن، ينتظر امتحانات الثانوية العامة بقلق ويحلمُ بمشوار قصير إلى المنتزه ليتأمل العصافير الصغيرة، أو ينتظر النهاية لكي يهرب من صفحات الكتب الرتيبة إلى الموج البعيد، يغيب في الزبد ويغسل عن جسده خوفه من نتائج الاختبارات، يترك الموج يرتطم بجسده الفتيّ ويضحك، يضحك ملأ قلبه راكلًا الدنيا كلها بقدميه، أليس هو من خرج بعد دوامه الدراسيّ وهو في السادسة عشرة من عمره لكي يقابل صديقه عند مفترق الشارع ولم يعد؟ لم تتمالك أم باسل نفسها، انهمرت -كما كانت تخشى- دموعٌ حارة غسلت وجنتيها، قامت بحركتها الاعتيادية بمسح خديها بطرف المنديل المطرز، أجهشت في البكاء ثم فعلت ما تفعله دومًا على مدار عامين، تناولت الصورة الساكنة في البرواز وضمتها إلى صدرها، وحينها فقط هدأت الدموع في قلبها قليلًا.

- يامّه، اهدئي، كل يوم نفس الموّال، كل يوم نفس القصة، هذه مش عيشة، راح عند ربّه، شو بدك أحسن من هيك!

مدّ له يدها وساعدها على النهوض كي يكمل عمله، في الحقيقة كان يريدها أن تخرج من الغرفة بسرعة، أن يبقى قليلًا لوحده فيستطيع هو الآخر أن يبكي.

- لو بس ما خليته يروح عالمدرسة بهديك الأوقات كان..

- بيكفي يامّه، بتعرفي انو ما فش كلمة بتغير القدر، اللي صار كان لازم يصير، الحمد لله نال الشهادة..

تنهَّدت أم باسل عند سماعها لفظة الشهادة، كانت تلك الكلمة فقط القادرة على جعل روحها تهدأ كلما هبّت فيها النار، وتذكرت بحرقة ذلك اليوم الذي ذهب فيه محمد ليشارك أولاد المدارس رشق الحجارة ضد جنود الاحتلال خلال الانتفاضة الأولى، لم يعد، وصلتهم مكالمة من المشفى تخبرهم أنه أصيب برصاصة في بطنه، بقي بعدها يومين في العناية المركزة يصارع شبح الموت، قبل رحيله بساعات اجتاح الجنود حيّهم، فتشوا منزلهم بين منازل أخرى، رفرفت فوق البيوت التي يتم غزوها أسراب من الحمام الغاضب، كان كلما حط على منزلٍ أرعبتهم أصوات الأقدام والأبواب التي يتم تحطيمها فيطير مجددًا، بقي الحمام محلقًا فوق بيوت الحي لساعات طويلة حتى تعب، حتى تحطمت أجنحته من القلق وعدم الأمان، فوقع أو ابتعد عن المكان كثيرًا. لحظة رحيل محمد في المشفى كانت اللحظة ذاتها التي داس فيها جندي وسادته في المنزل، هي اللحظة التي خبطت فيها أسراب الحمام بأجنحتها فوق سطح منزلهم وحلقت بعيدًا، لو أن الحياة شاشات تعرض في نفس الوقت لكانت تلك اللحظة مزيجًا من تلك المشاهد الثلاثة، أكثرها إيلامًا كان محمد هناك على سرير في مشفى يكتظ بضحايا الانتفاضة. لم يعد قادرًا على التنفس، فتح عينيه

لوهلة، همس: إمّي! ثم رحل. على الرغم من أنها كانت بجواره طيلة الوقت رغم حالات الطوارئ في المستشفى، إلا أنها كانت غافية لحظة أن فتح عينيه، أخبرها الممرض بعد ذلك بساعات، عندما مرّ بجانبه وسمع مناداته لأمه التي كانت عيناها المنتفختان من الحزن قد أُغلقتا قليلًا. بقيت تتحسَّر على تلك اللحظة، تخاف أن تنام لأن محمدًا قد يهمس لها شيئًا مجددًا، ولكن كان الأوان قد فات. لم تفهم أم باسل حينها -ولا حين جاؤوها بالكفن وطلبوا منها أن تودعه- ما جرى، ولا عندما شاهدته محمولًا على الأكتاف وقد استند النعش على أكتاف أخوته وصديقه الذي كان يرشق معه الحجارة ناحية الجيب العسكري ذلك اليوم، ولا عندما لم تجده نائمًا في الليالي اللاحقة على السرير، ولا بعد سنتين الآن وباسل يحاول أن يعلّق صورة أخيه الشهيد على الحائط كي يبقى معهم صورة كما هو معهم روحًا أيضًا.

زمنٌ من حلم 2013

في الطريق إلى المدرسة، وفي ظهيرة يوم شتاء لا تمطر السماء فيه، رأته مريم لأول مرة، كان والدها يحاوره، شاب ستعرف لاحقًا أنه يقطن في الحي المجاور، من تعابير الأب وانفعاله كان يبدو أنه يقنعه بأن يترك السيجارة، كان طويل القامة، شعره أسود كالفحم ويرتدي قميص المدرسة الثانوية الرمادي، على ظهره تتدلّى حقيبة تبدو وكأنها فارغة، يلقيها فوق كتفه الأيمن بإهمالٍ متعمّد.

مرت مريم وهي تلقي التحية على والدها، كان هو غارقًا في سحب نفَسٍ من سيجارته ولم يعر مرورها انتباهًا، كان قد مضى على رحيل أمها عام واحد فقط، كان عامًا ثقيلًا وحزينًا للغاية، حاولت أن تشغل مريم أيامها بالدراسة والذكريات، نظرت إليه نظرة خاطفة، تخيلت الدخان الخارج من السيجارة وكأنه يصعد مباشرة ناحيةَ الشمس، نظراته موجهة للأعلى بشموخ فتًى لم تمتحنه الحياة بعد، ولم تكسر فيه بالضرورة شيئًا غاليًا، من حين لآخر يرمق والدَ مريم بنظرات وادعة لا مبالية ويبتسم، بينما يزداد والد مريم عصبية، وتقبض يده بقوة أكبر على السبحة فيها وهو يحوقل ويستغفر الله بين عباراته.

عندما مرت مريم قريبًا من والدها لمحها، ووجد هو الآخر في مرورها فرصة كي يترك حواره مع الشاب الطائش، الذي بدا له حينها غير مُجدٍ.

- زي ما بدك يا محمد، أنا بدي بس مصلحتك، عمك كان تقريبًا قدك، الله يرحمه، لما راح متل الرجال يواجه الدبابات والجيبات العسكرية، عليه ألف رحمة ونور، محمد الشهيد.

تقاطعت الآن فقط نظراتهما، كان الحديث المفاجئ عن عمه الشهيد محمد كمثل صفعة، ألقى السيجارة من يده وحدّق ناحية مريم وكأنها خلاصه من عبء تلك المقارنة، احمرّت وجنتا مريم وشعرت برفيفٍ خفيفٍ في قلبها، لكنَّ محمدًا في المقابل وإن بدا محدقًا إلى وجه تلك الفتاة التي لا يعرفها، فقد كان يفكر في عمه الذي لم يقابله وعرفه فقط من الصور ومن حديث جدته ووالده المستمر عنه، عندما أدارت مريم وجهها لتمضي في طريقها مع والدها استيقظ محمد من أفكاره وقد اجتاحت الآن مخيلته فكرة سماحة ذلك الوجه الذي رآه للتو وبدا له كأنه يعرفه.

كان شروق الأيام لا يزال صعبًا في تلك الفترة على مريم، تنهض في الصباح الباكر وتعدّ الفطور لها ولأخيها وأبيها، بعض الزعتر والزيت مع قطعة من الجبنة البيضاء وكوب من الشاي الساخن. عندما تعود من

دوامها المدرسي يجب عليها فعل الأمر ذاته مجددًا لتحضير طعام الغداء، لا تربطها بمن حولها أحاديث عميقة، فقط أحاديث الحياة العادية وحسب، ولا أسرار تستطيع أن تدلي بها لأحدهم حتى إلى صديقاتها البنات في المدرسة، أحيانًا تجمعها لحظات خلال الإجازات والأعياد بجارتها ريتا التي تسكن على بُعد بنايتين من بيتهم، مع ذلك لم تجد وقتها أحدًا لتشاركه ذلك الشعور البسيط الذي باغتها عند رؤيتها ذلك الشاب في ظهيرة ذلك اليوم، كان شعورًا جديدًا، كمولود وُلدَ للتو ليس له اسمٌ ولا تفسيرٌ بعد.

رغم طيشه وبُعده عن عالمها، بدا وكأنه على حين فجأة جزء لا يتجزأ من وجودها، تستولي الفكرة عليها بأنها تبالغ وأنه لم ينتبه حتى لها، وعليها أن تنساه، فليس من المجدي أن نفكر في الأشخاص الذين لا يفكرون فينا، حكمة أمها القديمة "لا تفكّري في أي إنسان لا يهمك يا مريم.. انسي، أغلب البشر، هم في حياتنا عابرون"، لكن يغلبها قلبها، تميل إلى إحساسها الفطري بأن كل ما يحدث في الحياة لا بد أن يكون متبادل، أخذت مريم تعيش هذا الصراع الذي وجدت فيه حلاوةً لأيامها الباهتة تلك.

لم تكن قد عرفت عمره بعد، ولا أي شيء عنه، سوى اسمه. كان حتى تسريحها لشعرها في الصباح يأخذ وقتًا أطول في تلك الفترة، ليس لأنها تفعل ذلك بعناية أكبر، ولكن لأنها بدأت ولأول مرة تتأمل نفسها

في أعين الآخرين، تفكّر كيف يراها من لا يعرفها، كيفَ يحكم عليها الناس لدى رؤيتها للمرة الأولى، هل حقًّا تبدو جميلة؟ على مرآة تسريحتها كانت قد ثبتت صورة أمها في الزاوية، كلما نظرت إلى وجهها تدحرج نظرها إلى ذلك الوجه الدافئ وابتسمت له، وفي أحايين كثيرة تحادثها بصوت خافت وتخبرها بماذا تشعر. كانت تشعر منذ غياب والدتها بوحدة وانكسارٍ دخيلين على حياتها ولكنها بقيت متعلقة بآمالٍ خفية عن مستقبلٍ بعيدٍ في حياة أخرى، تنتظر لحظة لقائها والدتها في عالم آخر. تعلّقت بالكتابة في ذلك الوقت، وحاولت أن تقول ما تشعر به على صفحات بيضاء لا يقرأها أحد، ولولا ذلك لانفجر قلبها تمامًا.

فكّر محمد فيها قليلًا في ذلك اليوم هو أيضًا، وعلم من أصدقائه الجيران اسمها وقصة استشهاد أمها، لم يكن من الممكن الحديث معها، أراد التقرب منها أو إضافتها على أحد مواقع التواصل، ولكن لقد خاف محمد مجددًا، خوفه الأكبر في الحياة، خوفه الذي سيتبعه حتى يوم يموت وفي عيونه دموع من الندم انحبست وتجمدت في المقلتين للأبد، سيحيا ويموت دون أن يلقى وصفًا مناسبًا له، ودون حتى أن يكون قادرًا على مواجهته والتعرف عليه، لكنه كان الخوف من الوهم، فلمحمد قصة تعود به إلى طفولته، قصة سببت له من الألم ما لن يجعله أبدًا راغبًا بإعادة أي جزء منه. خاف لأيامٍ ثم قرر أن ينسى الفكرة ويتناسى ذلك الوجه. ففي النهاية لن يفيده شيء من ذلك الذي

يقوم به أصدقاؤه الشبان من حديث مع فتيات من المدارس الأخرى. حتى لو عاش جميعهم في ذلك القفص الجميل، هو لا يريده، بالنسبة لمحمد تكفيه سيجارة حقيقية، دخان حقيقي عن فكرة يحلم بها تكون من خيال قد ينسفه أو ينسف قلبه في أي لحظة، أليس هو من شاهد جدته تموت وهي تنتظر أن تزف عمه إلى عروسته، تلك التي لم تقابلها ولا تعرفها ولكنها أوجدتها، لقد رأى جدته تحيا في الوهم حتى آخر أيامها، محمد الذي بكى وهو يدعو الله أن ينسى مريم، لم يستطع خلافًا لكل توقع وألم أن ينساها أبدًا.

محمد الذي رأى عدل الله بعد سنين كثيرة من ظلمه وتركه لمريم في غربتها، لقد كان عدل الله أنها بقت معه كظلٍ ملّح جعله يوقن بأنه لا يحيا إلا حياة ناقصة دونها.

لقد خاف أن يحلم بمريم ويحبها عندما كان شابًّا طائشًا، ولكنه أحبها، لأن الحب أيضًا قدرٌ لا مفر منه تمامًا كعدل الله إزاء ما نقوم به حيال قلوب الآخرين.

زمن من شمس 1987

الحياة في المدينة من نور، تفجّر شيء دفين في قلوب الشباب والأطفال، شيء لم تستطع المعاجم أن تقف على تسمية أخرى له أجمل من الكرامة، في تلك البلاد تلتحم القصص أحيانًا بخيالات المراهقين، يشمّر الطلاب عن سواعدهم، شواربهم تبدأ بالظهور، أصواتهم تصبح غليظة، لا يعيشون قصص حبهم الأولى هذا العام، فهناك قصة عشق لأرضٍ لطالما تخيلوها حرة، وتخيلوا أنفسهم الجيل المنقذ لها، اشتعلت شرارة الانتفاضة الأولى في هذا العام، كان باسل الذي يقطن في حي النصر منتصف المدينة لم يزل في الثانوية العامة، بينما محمد في السادسة عشرة من عمره بعد، لم يكونا أخوين فحسب، بل صديقين مقربين، باسل يقرأ كتب غسان كنفاني التي يستعيرها من مكتبة المدرسة ثم يعطيها لمحمد كي يحاوره في الرواية بعد إتمام القراءة، في العروق الشابة يجري ملح بحر المدينة وملح القهر معًا، الناس مجروحة في القلب، الحياة بأيامها تشعل الجروح في الروح أحيانًا، وأحيانًا كثيرة تطفئها.

على أبواب بيوت الحي حيث كان الناس يجلسون مساءً لاحتساء كأس من الشاي معًا وتبادل أحاديث السياسة، كان الشبان يتناوبون

لحراسة المنازل، ومراقبة الحي، وتسهيل مرور الثوار واختبائهم بين المنازل.

لا ينسى باسل اليوم الذي اقتادوه فيه مع شبان الحي جميعًا، والذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والأربعين، كي يصطفوا على جدار، ثم قاموا بإطلاق النار على بعضهم بطريقة عشوائية.

الفرح الذي يجد طريقه مصادفة إلى قلب هؤلاء الناس بكل بساطة يرشد الحزن لاحقًا إلى قلوبهم، ذلك الشبح الذي يزحف إلى روحهم ويميتها ويميت معها المدينة، ولكن لا يدوم انتصاره إلا لوقت قصير، ففي الأعين الحزينة لسكان المدينة يتجذر فرحٌ مقاومٌ صغير، يعود من حين لآخر ليعبّر عن نفسه بضحكة مجلجلة، نكتة بسيطة، ركض طفل نحو والديه، ثوار يحتفلون بخروجهم من لغم سالمين، حلم شاب وسط كل هذا الموت بيوم فرحه، امرأة عجوز تضع الورود في إناء وسط الطاولة، وصور كثيرة أخرى.

في اليوم الذي خرج فيه محمد ولم يعد، كان قد شرب في الصباح الباكر نصف كوب الشاي، وتناول قطعة من الخبز مع الجبنة البيضاء على عجالة. كان الدوام المدرسي المتقطّع بسبب الاضرابات، والذي لا يخلو من المظاهرات لا يزال مستمرًّا، لم يكن محمد مستعدًّا لكيلا يعود إلى البيت ذلك اليوم، لم يكن شيئا مخططًا سوى لقائه

بصديقه أمجد عند انتهاء الدوام والذهاب لشراء دفاتر من أجل الدراسة. حتى أمجد لم يدرك الموت في عيني صديقه ذلك الصباح. في الطريق شاهدا جيبًا عسكريًّا عند أحد المفترقات، هناك وقف بعض الأطفال ممسكين بالحجارة والشُدّيدة (أداة تُستعمل لقذف الحجارة مسافاتٍ أبعد)، لم يسأل كلٌّ من أمجد ومحمد الآخر عما سيفعله، دون أن يتبادلا كلمة واحد ألقى كلٌّ منهما حقيبته بجانب أحد الأعمدة، تناولا حجرين من الطريق وانطلقا في الطريق قريبًا من الجيب العسكري لمشاركة باقي الأطفال تلك المعركة اليومية غير المتكافئة. سقط محمد وكان الحجر لا يزال في يده، وفي حقيبته لا يزال كتاب رجال في الشمس يقبع مستندًا إلى العمود في انتظار أن يناقشه مع أخيه باسل، شعر محمد بسخونة في بطنه ثم بدأ الألم، لم يمت على الفور، كان لا يزال يستطيع سماع صوت صديقه أمجد ينادي عليه ويهتف بالآخرين كي يهمّوا لمساعدته، ثم صوت سيارة الإسعاف، يغيب محمد عن الوعي ثم يعود وعيه للحظات عابرة والدم لا يتوقف عن النزيف. كان آخر ما سمعه صوت رجل يخبره بأن ينطق الشهادتين، تحركت شفتا محمد بصعوبة، تمتم بشيء لم يفهمه أحد، ربما كانت الشهادتين وربما كانت وصية ضاعت إلى الأبد.

اليوم الذي أغمض فيه محمد عينيه في المستشفى بعد مكوثه في العناية المركزة لأيام، كان اليوم الذي أقسم فيه باسل على نفسه أن ينتقم لأخيه، مهما كلفه الأمر.

بعد أسبوع كان باسل يقف عند مدخل بيتهم، لم يتمكنوا من إنشاء خيمة عزاء بسبب ظروف البلد الصعبة وانعدام الأمن، الناس تخاف من التجمعات، تخاف أن تنقضَّ عليهم الغربان المسلحة، أمامه وقفت أمه وهي تسد المدخل بجسدها المتشح بالسواد.

- ما باخلّيك تطلع ولو على جثتي، ماش بيكفي ابن راح.

لا يعلم باسل إلى اليوم كيف علمت أمه بما كان يريد تنفيذه، وكيف صحت من النوم فجأة وسدّت مدخل البيت كي تمنعه من أن يعرّض حياته للخطر. صرخت فيه:

- بعرف وين رايح، بيكفي جنون، إذا بتطلع من هالباب ولو كنت شهيد بنظر كل الناس ما بتكونش شهيد بنظري لانو رح اغضب عليك.

تجمد باسل في مكانه وهو يحدّق عميقًا في عيون أمه، رأى فيهما إرادة لن يستطيع مهما فعل التغلب عليها، لكن القهر كان يأكل قلبه تمامًا، أراد أن يقول شيئًا ليقنع أمه، ودّ كثيرًا لو كان قادرًا أن يزيح

جسدها من الباب ويخرج، وتمنّى للحظات لو كانت أمه قد ماتت أيضًا كي يلحقوا جميعًا بأخيه، ولأنه وقف عاجزًا تمامًا ركع على الأرض واضعًا رأسه بين يديه وأخذ يجهش في البكاء المر.

في الخارج زحف الخريف ثقيلًا هذا العام إلى الشجر، كان صفار الورق يمتزج بالدم، صوت الريح الذي يتخلل الأشجار كان يحمل معه أسرار الشهداء الأخيرة، آخر همساتهم، كلمات المكلومين بالفقد المفاجئ وقد حملت معها ذلك اليوم صوت بكاء باسل عند مدخل البيت حالمًا بانتقامٍ لأجل أخيه محمد، لن يستطيع تحقيقه الآن بسبب أمه، ولكنه سيبقى أبدَ الدهر انتقامًا مؤجلًا.

- النار بتحرق القلب يا ابني، اسألني أنا، لكن وكّل الأمر لربك، ربنا مع الصابرين.

ربتت أمه على كتفه وانحنت وعانقت الوجه الذي غسلته الدموع، وأمام الباب الموارب كان ضوء القمر يتسللّ بين أشجار الحديقة فيغسل ما يغسل ويثير في القلب من الحزن ما يثير.

زمن من غدر 2021

هناك في القرى المنسية خلف حدود الجبال تعلو من حين لآخر أصوات من الطبيعة المهزومة، المنسحبة إلى ما خلف حدود الإنسان الصعبة، تنكمش على ما فيها من هدوء ونقاء وتختبئ بين الحشائش وبتلات الورود المبعثرة، تهدهدها السماء الحانية عليها، وتمسح عن جبينها المتعب ماء الأنهار والبحيرات. يستطيع المرء أن يسمع هناك صوت الجمال وهو يغني فوق أسطح المنازل القرميدية، أن يراه في صف طيور مهاجرة لا يعرف نوعها، فقد ضاقت أبجدية طبيعته التي تربى عليها على استيعاب ذلك، تأخذنا الحياة إلى تفاصيل أنفسنا، وتأخذنا الطبيعة إلى تفاصيل الوجود وحقيقة الله أحيانًا. في تلك القرية الواقعة بين أربعة جبال قضت مريم بعض سنين حياتها، سنين عابرة، لكنها حفرت في ذاكرة القلب جرحًا غائرًا، وتحول القلب من بعده إلى صلصالٍ قاسٍ، أو حاولت هي أن تقنع نفسها بذلك.

كانت قد التقت بزملاء عمل لها هنا، إذ أخذت تزاول مهنة التمريض في مستشفى القرية الوحيد، في البداية كان العمل يستنزف كل يومها ويُشعرها برضًا خفيّ وحقيقيّ أنها تقوم بما حلمت به، وهي أن تساعد المرضى باختصار، وإن كانت أمنيتها الأولى هي دراسة الطب، لكن بسبب ظروفها المادية لم تستطع أن تحقق تلك الأمنية، ووجدت

نفسها تشق لنفسها طريقًا موازيًا قادها في نهاية المطاف إلى الشعور بالرضا وهي تسير في الأروقة الباردة والمعتمة أحيانًا ليلًا.

تركت مريم بلدها في سن التاسعة عشرة، وخرجت لدراسة الطب في ألمانيا حيث يعيش عمٌّ لها منذ سنين، ولكنها عجزت أن تحصل على النتائج اللازمة لذلك، لم تكن تستطيع دراسة الطب كذلك في بلدها، إذ إن التكاليف باهظة أكثر هناك، انتهى بها المطاف هنا بدراستها للتمريض ومزاولتها للمهنة لاحقًا.

ولم ترَ ذلك العم سوى مرتين وحسب، حيث إنها لم تشعر ناحيته بصلة ما، لقاءين محاطين بالمجاملة السطحية، أقسمت بعدها مريم أن تشقّ طريقها وحدها دونه.

كانت تنتظر أن تعود إلى بلادها دومًا، ولكنها لم تعد، لامها الجميع أنها لم تدرس الهندسة بدل التمريض، لكن مريم لم تكن ترى نفسها سوى بالرداء الأبيض تعبر أروقة المستشفيات وتشد بيدها على أيدي المتعبين. أيا كان ما تخيله الناس عنها، فقد كانت صورتها المتخيلة تلك عن نفسها هي أثمن ما تملك.

- يا ابنتي، يا مريم، لماذا لا تعودين وتكملين دراستك هنا؟ التمريض موجود في كل مكان، وهنا غير مكلف، لماذا تصرّين أن تبقي في بلاد البرد والوحدة؟

كان يأتيها صوت والدها ملحًّا في المكالمات الهاتفية.

- لا أستطيع يا أبي، لقد قطعت سنتين هنا في تعلّم اللغة والبحث عن مكان في الجامعة، سأستطيع أن أساعد أخي هكذا أكثر، ثم إني قابلت كثيرين هنا ممن عملوا في التمريض ثم درسوا الطب لاحقًا، وقد نجح الأمر معهم، وربما ينجح معي لاحقًا.

لم تكن السنوات تلك سهلة، لكن الطبيعة منحتها ملاذًا من أفكارها. ستتذكر مريم طيلة حياتها الممر الوردي الذي سلكته مرارًا كي تقطف بعض التفاح والكرز من بقعة صغيرة تشبه الغابة في نهايته في قريتها، تحوم الطيور بين الأغصان دون أن تراها، تمد يدها داخل الشجرة، وتخاف من أن تلمس يدها خفقان طائر فترتعش وتسقط، ولكنها كانت لحسن حظها لا تطول سوى الثمار، أحيانًا تجد التفاح الأخضر مُلقًى على الأرض كدرب نهاية حزين، بعضه متعفن وبعضه طازج، تتناوله وتضعه في سلة دراجتها الهوائية ثم تعود إلى البيت بصيدٍ ثمين، هناك أمل يسكن البراعم، كما أن هناك موتًا يسكن الثمار أحيانًا.

في أحد أيام شتاء عام 2021 رأت مريم تلك المرأة التي لن تنساها، امرأة في أواخر العشرينات أو أول الثلاثينات من عمرها، تحمل جَمالًا

وحزنًا في محيّاها البسيط، شعرها الأسود منسدل، بينما ترفعه عن عينيها ببندانة صوفية، رداؤها الشتوي الذي يصل إلى ما بعد الركبتين، وحذاؤها الشتوي العالي، كان الوقت غروبًا، وكانت مريم لا تتوقع أن تجد أحدًا مثلها وحيدًا يعبر ذلك الممر الوردي بين البيوت والذي لم يكن ورديًّا في ذلك الوقت من الشتاء، ولكن مريم احتفظت له دومًا بذلك الوصف.

لقد كان في العبور نفسه من الأسى الكثير لمن هم وحيدون، إذ يعبر المرء بين صفين من البيوت بنوافذها المشعة بضوءٍ دافئ، يسمع المرء خلال مروره أصوات الأواني والملاعق، ويرى ظلال الجالسين إلى موائدهم مجتمعين بعد العمل.

بدت لمريم تلك المرأة الشابة كمن لا يُعير كل تلك الضوضاء أي اهتمام، كانت تسير قُدمًا بحزن صارمٍ في عينيها، امرأة تعي تمامًا إلى أين سيقودها هذا الدرب، تقاطعت نظراتهما، بينما كانت مريم في طريق عودتها من غابتها الصغيرة بعد نزهة صغيرة بعد العمل.

شيء ما غريب في المرأة الغريبة جعل مريم تغيّر طريقها وتتبعها، أقنعت نفسها بأنها تريد أن تشبع فضولها إن كانت وجهة المرأة الغريبة أيضًا تلك البقعة المنسية من الغابة أم لا.

شاهدتها مريم خلال سيرها وهي تمسح بيدها من حين لآخر على وجهها، هل غطى ذلك الوجه الجميل الدموع؟ عند نهاية الممر الوردي وصلت إلى بقعة مفتوحة، حيث تصطف بعض السيارات، يطلُّ في وسط هذه الفتحة على اليمين مُدرّجٌ صغير، ولكنه يفضي إذا تبعه المرء حتى قمة أحد الجبال هناك.

توقفت المرأة وحدّقت إلى ذلك الممر، ثم تابعت سيرها في الطريق حتى وقفت أمام أحد البيوت، بيت مطفأة نوافذه في الزاوية تمامًا، يبدو كبيت مخفيّ يلفه الظلام الدامس، شاهدتها مريم وهي تنظر ناحية السماء كمن يفضي بأمرٍ إلى الله، ثم أخفضتْ رأسها وأخذت تبكي، المكان خالٍ ولا أحد في هذه الساعة المتأخرة من النهار سوى هذه المرأة ومريم التي وقفت بعيدة عنها بضع خطوات.

فجأة انتبهت الفتاة إلى مريم فأخذت تمسح دموعها بسرعة، وتقدمت عائدة من الطريق الذي أتت منه، تقدمت مريم حينها كي لا تثير ريبة الفتاة باتجاه ذلك البيت، عندما تقابلت أنظارهما مجددًا ابتسمت الفتاة لمريم ومضت في طريقها تحاول أن تسند جسدها وروحها على شيء ما غير مرئي، وجهها غسلته الدموع وقد زادته بهاءً ووقارًا.

عندما وصلت مريم إلى المنزل وجدته منزلًا عاديًّا، يبدو أنه غير مسكون، أو ربما سافر سكانه. ما الذي يربط هذه الفتاة بهذا البيت، ذلك ما لم تعرفه مريم حينها ولكن بقيت صورة امرأة تبكي وحدها في المساء في هذه القرية عند نهاية الممر الوردي، وفي ظل الجبل العملاق كلوحة حزينة سريالية لا تتكرر هنا كثيرًا.

زمن من غدر 2022 - الغريبة

في المرة الثانية التي قابلت مريم تلك الفتاة كان ذلك في ربيع عام 2022، كانت تستلقي وسط مجموعة أشجار في فصل الربيع على كرسيّ حديدي، ممدَّدة وبجانبها كيس من الحاجيات وزجاجة ماء، أمامها تستند دراجتها الهوائية على الأرض، تحدق من بين الأشجار ناحية السماء كما كانت تحدق قبالة المنزل في ذلك المساء، زرقاء مشمسة كانت السماء فوقهما. تهيأ لمريم أن الربيع قد أضاء عيونها بالحب والأمل، بدأت مريم حديثها بالألمانية مسلِّمة عليها.

- مرحبا، هل يمكنني الجلوس؟

انتبهت المرأة التي لا تزال بلا اسم لحضور مريم، فقد كانت شاردة بتحديقها إلى الأعلى، أشارت لها موافقة، لم يبدُ عليها رغبتها في الحديث مع أحد، جلست مريم وقد شعرت بالخجل، إذ إنها كسرت عزلتها التي ربما كانت بحاجة إليها.

مرت لحظات من الصمت قبل أن تسمع مريم تلك المرأة تتمتم: "يا الله".. "يا رب"، فتشجعت لتسألها:

- هل أنتِ عربية؟

نظرت المرأة ناحية مريم بداية بتوجّس، ثم هدأ التوتر في نظراتها كمن استطاع أن يميّز وجهًا يعرفه، ثم قالت:

- مهلًا.. أنا أعرفك، لقد شاهدتك قبل الآن أليسَ كذلك؟ لكن أين..؟

لن تنسى مريم تلك النظرة الثاقبة التي حدجتها بها تلك المرأة قبل أن تستطيع مريم أن تفكر بشيء لتقوله حتى، أكملت المرأة بانفعال طفل عثر على جواب سؤال صعب:

- أنت الفتاة التي تبعتني في الشتاء على الطريق المقابل للجبل هناك. أليس كذلك؟

وأشارت بيدها بعيدًا إلى ذلك الجبل العالي، حيث غرس أحدهم عند قمته صليبًا عملاقًا، وأكملت:

- لقد رأيتك غير مرة في القرية، ولكن من المستحيل نسيانك في ذلك اليوم، لقد كنتُ في أمس الحاجة لرؤية وجه ما، لقد كان يومًا عصيبًا جدًّا عليّ. ربما لا يعني لك ذلك كثيرًا، لكن شكرًا لك.

كان قلب مريم يخفق بقوة متعجبة من ذاكرة الفتاة. بعد صمتٍ قصير أكملت الفتاة حديثها:

- لقد كنت أبحث عن وجه الله. لم أشعر به في ذلك اليوم، ولكني عثرت عليه لاحقًا.

لم تمتلك مريم من الوقت ما يكفي لتفادي الحرج، أو لتتملص من تلك التهمة، لم تحاول أن تقول شيئًا، بدت تلك المرأة وكأنها على يقين مطلق بكل ما تقول، كأنها ترى ما لا يُرى، فقبل قليل عندما كانت مريم تتأمل معها بقعة السماء الزرقاء بين الأشجار انتابها شعور غريب بالألفة، ذلك الشعور الذي نشعر به عندما نلتقي أناسًا لا نعرفهم، ولكنهم سيكونون جزءًا غريبًا من مستقبلنا.

علمت الغريبة بما يساور مريم من خجل. حاولت أن تكسر حواجز الجليد تلك، وانطلقت تشرح لمريم بإسهاب:

- لا عليكِ، لست منزعجة من أنك تبعتني على الإطلاق، كما قلت فأنا ممتنة، أعني حرفيًّا ذلك الامتنان، لقد كنت بحاجة ماسة لأن يميّزني أحدهم، لا تسأليني لماذا، سأكتفي بالقول أني حينها كنت أفكر في الموت أكثر من الحياة، ولكن لا تسأليني ما الذي كنت أفعله في رحلتي تلك، لأن تلك الصفحة قد طويت من حياتي، ولأن الذين سكنوا ذلك البيت قد ماتوا جميعًا بالنسبة لي، لقد طالت النيران قلوبهم وانسحبت من قلبي، ومع ذلك فقد كان عليَّ أن أنتظر طويلًا، ولا تسأليني كذلك عن اسمي وماذا أعمل في

هذه القرية، لأني راحلة عمّا قريب، ولا أحب أن أكون موجودة في ذاكرة أحدهم، لقد انتهت تلك الرغبة من قلبي، أن أكون ذكرى، رغم قولي ذلك أعلم أيضًا للأسف أنك لن تنسيني، لأنك لم تنسِ أنك رأيتني على درب الجبل ذاك، ولهذا بادرتِ بإلقاء التحية الآن...

ضحكت المرأة ضحكة قصيرة ونظرت لمريم بعطف غريب، وأضافت بحذاقة:

- أخبريني إن كنتُ مخطئة.

احمرّ وجه مريم، وكانت لا تزال عاجزة عن الرد عن كل هذا الفيض من التعليقات والأسئلة التي انهالت عليها فجأة.

أغمضت الغريبة عينيها وتنهَّدت بعمق كمن يريد أن يبكي، وعندما فتحت عينيها من جديد نظرت ناحية مريم وقالت بهدوءٍ وانفعالٍ أقل هذه المرة:

- لقد أغرقتك بالعبارات والكلمات.. لا عليكِ.. أحيانًا يكون قلبي مستعجلًا لإلقاء ما في دلوه. أنا التي عليَّ الشعور بالخجل منكِ الآن.

شعرت مريم بغرابة تلك المرأة، كيف لها أن تمتلك بصيرة نافذة لهذا الحد، كيف سبرت أغوار مريم؟ ولماذا تحمل في قلبها كل هذا الثقل؟

لم تمنع مريم نفسها من أن تسألها بعفوية عن السبب وراء حتمية رحيلها:

- تتركين القرية.. ولكن لماذا؟

ابتسمت المرأة ثم حدقت لوهلة مجددًا في فتحة السماء بين الشجر، أخذت نفسًا عميقًا وأكملت:

- لا يستطيع المرء أن يبقى في المكان الذي انكسر فيه قلبه، وأنا انكسر قلبي في هذه القرية، بين هذه الجبال الأربعة ولم تنقذني من مرور الأيام الباردة سوى فتحة السماء هذه، انظري إليها كم تبدو زرقاء ومشعة بالنور.

وأشارت بكلتا يديها كمن تضم الهواء إليها ناحية السماء، بدت في تلك اللحظات لمريم وكأنها ملاك يحتضن يقينًا لا تراه.

حديث المرأة عن انكسار القلب ذكّرها بوالدها وبمحمد، مرّ في تفكيرها سريعًا صورة أبيها وهو يدير ظهره ويرحل بقلبه عنها وعن وديع، وإن كان قد بقي بجسده قريبًا منهما. تذكرت كيف تركهم

وحيدين عندما قرر أن يتزوج فجأة، وكان ذلك في زمن لم تكن فيه مريم بعدُ قادرة على النهوض وحدها، ثم تذكرت محمدًا وهو يجلب لها الورود، ثم يبني لها وعودًا في السماء، ويرحل فتنهار السماء الزرقاء تلك التي تبدو كفتحة نورٍ الآن فوق رأسها.

ترقرقت عيناها بالدموع قبل أن تسمع المرأة تسحبها مجددًا بصوتها الناعم والدافئ إلى عالمها:

- ينجرحُ المرء كثيرًا في الحياة قبل أن يتعلم أن يتبع أحاسيسه ويصدقها منذ البداية ولكن تأخر الوقت، قد دفعت ثمن ثقتي بالحب في هذا العالم غاليا ودفع هذا الثمن أيضًا أشخاص عزيزون عليَّ جدًّا، ما علينا، لا أعلم لماذا أشعر بأني أعرفكِ، أو بأنك تعرفين شيئًا عني.

كانت مريم تشعر بذات الشيء ناحية المرأة الغريبة، بيد أنها لم تصارحها بذلك، شيء ما شدَّها لعمق ذلك الوجه الحزين والصادق أيضًا، كان أمرًا نادرًا أن تتعرف مريم إلى شخصٍ بهذه السرعة، ولكن في تلك اللحظة تحديدًا من حياتها بدا كل شيء ممكنًا حتى أن تفتح قلبها لجرح جديد، أو أن تترك نفسها فريسة للآلام.

سألتها الغريبة:

- هل لي أن أعلم من أي المدن أنتِ؟

ربما كان هذا السؤال الوحيد الذي بقيت مريم قادرة على الإجابة عليه بكل يقين:

- أنا من مدينة غزة، فلسطين.

ابتسمت الغريبة وأضافت:

- المدينة العصية على كل شيء.

تابعت الغريبة بسرعة وكأنها تود أن تهرب من مواضيع البلاد كي لا تسألها مريم عن أصلها أيضًا:

- سأقصّ عليكِ بعض المواقف أو القصص عن أناسٍ تركوا قصصهم معي وغابوا. عليكِ أن تصدقيها جميعًا، هذا لو أردتِ بطبيعة الحال أن تبقي هنا أو أن تتحاوري معي من الأساس، لا تخافي، أنا لا أريد منك شيئًا، لا أريد من أحد شيئًا على الإطلاق، هل تودين الاستماع إليَّ؟ هل لديك الوقت الكافي الآن؟..

تنفَّست بعمق ثم قالت وقد امتزج صوتها بنسمة باردة منعشة حرّكت أغصان الشجر حولهما:

- ربما أريد منك فقط أن تذكري ذلك، أن تذكري تلك القصص وتحمليها بداخلك كما حملتها أنا، ولكي تتذكريها عليكِ أن تصدقيها.

كانت مريم في حالة من الارتباك فسألت بعفْوية:

- لكن لماذا أنا؟
- لا أعرف. شيء ما اختاركِ لتكوني أنتِ.

نظرت الغريبة لمريم بحنوٍ دافئ ومفاجئ وسألتها:

- ولكن قبل ذلك أود سؤالك إن كنت تؤمنين بالعدل في هذه الحياة؟

كانت مريم على وشك الاعتقاد بأنها تجالس امرأة مجنونة، فقد سمعت كثيرًا عن الأزمات النفسية ونوبات الاكتئاب التي تصيب المغتربين والوحيدين في برد هذه البلاد، عن الظلام الذي يلتصق بالجلد ويصبح من الصعب غسله، وعن العتَمة عندما تجتاح القلوب الهشة، لطالما خافت أن تُصاب بمثل هذه الابتلاءات، أن تتعثر روحها فتضلّ الطريق، حينها سيكون حتى الرجوع حلمًا.

شعرت تلك المرأة بفراستها ما يراود مريم من هواجس، كان في صوتها وقارٌ غريب، كشخص يلقي كلماته الأخيرة في الحياة:

- لا تفكّري كثيرًا، كنتُ على كل حال سأحتفظ بهذه القصص لنفسي، لكنك أتيتِ، قلت لنفسي ربما تكتبين عنها يومًا ما.

سألت مريم وقد بدت الدهشة عليها:

- كيف عرفتِ أني أكتب؟

ابتسمت الغريبة وهي تجيب:

- لقد رأيتك مرة وأنتِ تجلسين بجانب النهر وتمسكين قلمًا وتكتبين، خمّنت أنك تكتبين لأن من يجلس قرب النهر وحيدًا يكون في بحث عن مصدر إلهام، لقد كان مجرد تخمين، يسعدني أنه لم يجانب الصواب، أنا أيضًا اعتدت أن أكتب في السابق، لكني لم أعد أستطيع، أصبح قلبي ثقيلًا جدًّا، كلما كتبت بكيت. لقد تصالحت مع فكرة حديثي مع الله في بقاعٍ منسيةٍ ومهجورة كهذه، لكنك أتيتِ، لكن أرجوكِ أجيبيني؟ هل تعتقدين بحتمية العدل في هذه الحياة أم أنّ على المرء الانتظار حتى حياة أخرى؟ لكن أجيبيني بصدق، فاعتقادك هذا يهم أكثر بكثيرٍ من معرفتك تلك القصص.

تلعثمت مريم قليلًا، تذكرت محمدًا وهو يغيب بصحبة امرأة أخرى بعد وعوده البرّاقة، تذكرت أمها وهي ترحل وقد امتزج دمها بالخبز الساخن، تذكرت تركها لمدينتها مرغمة كي تبتعد عن الذكريات وتحقق أحلامها في غربة حزينة رمادية.

ساد الصمت فيما راحت مريم تستجمع أفكارها:

- أومن بذلك بشدة، أعتقد أن كل إنسان يلقى جزاء أفعاله، بل إنه يلقى جزاء حتى أفكاره السيئة والمؤذية ناحية الآخرين، لقد نجوت شخصيًّا من آلام في الحياة بفضل هذا الإيمان وحسب.

هزت الغريبة رأسها وبدا على وجهها الذابل لمحة إشراق، كما لو أن روحها غُمرت فجأة بالأمل وسألت بتشجع:

- هل تودين البدء بالسماع؟

أومأت مريم للغريبة موافقة، ملأت رئتيها بهواء منعش واستعدت لاستقبال تلك القصص التي لا تعرف أبطالها أو عمَّ تتحدث، على يد الغريبة اليمنى ظهرت آثار حروق حديثة، شعرها متروك للريح، أمامهم على بُعد خطوات يعلو مبنى المستشفى حيث تعمل مريم، وإليه حيث

لا تشـتاق أبـدًا. لقـد بـدا كمـا لـو أن فتـاتين اجتمعتـا في عـالم آخـر منفصل عن لغة وجو وحتى سكان تلك الأرض المحيطة.

بدأت الغريبة...

زمن من غدر 2022 - الغريبة

بدأت الغريبة تروي لمريم، كان فستانها الأسود يصل إلى ما تحت ركبتيها، فيما شمّرت ساعديها إلى المرفقين عن سترة زرقاء خفيفة، عمّ الصمتُ المكان، قم بدأت تروي:

- أريد فقط أن أوضح لك أمرًا، سأروي القصص بضمير المتكلم، كما لو أنها قصصي أنا، ولكن أرجوك لا تسقطي تلك القصص عليَّ، حتى اسمي لا تسأليني عنه، هل اتفقنا؟ على الأقل الآن...

امتلأ قلب مريم بالأسئلة، أرادت أن تعرف لماذا عليها أن تبقى مجهولة، ولماذا اختارتها الغريبة، فهي لم تقتنع بحجة الذكرى ولا حجة الكتابة، كيف تُفضي بتلك اللعبة الغريبة من قصص لأبطال مجهولين، لماذا تفعل هذا؟ ولكنها اكتفت بالصمت وهزت برأسها وهي تحاول إبداء اقتناعها بما قالته، في داخل مريم كان هناك فضول غريب بأن تستمع لقصص الناس، ربما بسبب نزعتها الروائية كما كانت في صغرها، وربما لكي تنسيها قصتها الخاصة بها، تلك التي كلما ذكرتها خانتها الدموع وانهمرت.

ابتسمت الغريبة وتابعت بصوتها الصافي.

- لقد عرفتُ شخصًا يسكنه الشيطان، لقد رأيت الشيطان يشتعلُ في عينيه، كان في الظاهر شخصًا عاديًّا يؤدي مهنة الترجمة في أحد المراكز التعليمية، في الحقيقة كان يعرّف عن نفسه بأنه صوفيّ صاحب طريقة ومذهب، يذهب كل خميسٍ إلى أحد التكايا ويهلِّل ويسبّح مع الموجودين هناك، لو رأيتِه وهو يرتدي جلابيته ويضع الطاقية على رأسه، وهو يمسك السبحة بيده، وهو يحاول غض البصر على قدر استطاعته، لما استطعتِ إطلاقًا أن تعرفي أي قدر من القاذورات يحتوي قلبه.

تنهَّدت بعمق وحدقت في مريم لترى شيئًا في عينيها كانت تخاف ألّا تجده وهو التصديق، ثم تابعت:

- في يوم من الأيام كنت أجلس مع أحد الأصدقاء، وكان قد فقد والده حديثًا، أخبرني لأول مرة عن ذلك الشخص، وكيف ساعده في تلك المحنة، كنتُ وقتها أعاني من فقد أمي، وأبكي بشكل يوميٍّ دون أن أقوى على فعل أي شيء في الحياة، وكان إيماني في تلك الفترة في أوج انكساره، وقد أصبحت أعتقد أن الحياة لا بد أن تكون على قدر هائل من العبثية لنعاني فيها إلى هذا الحد. بعدها ذهبت إليه في مكتبه، ويا إلهي كيف صدقته! تخيلي أنه كان يعطيني أذكارًا لتسبيح الله كل يوم والصلاة على النبيّ، وكنت أفعل تمامًا كما كان يخبرني، في رمضان أوصاني بأن

أختم القرآن عشر مرات وقد فعلت.. كنت أشعر كما لو أنني أدخل نفقًا من ضوء، وبدأت أتلمس الحكمة في ذلك الألم، كنت أحدّث نفسي قائلة: "لولا هذا الألم لما التقيت هذا الإنسان الذي يعرف الله".

بين الفينة والأخرى تهب نسمة منعشة تجعل شيئًا ما خفيًّا في مريم يصحو، شيئًا مثل نبوءة هذه الذكرى، أن هذه اللحظات ستذكرها مريم لاحقًا، وهذا ما سيحدث حقًّا، فستذكر مريم وجه الغريبة حتى وهي تضع ابنها البكر، وعندما ستلتقي زوجها الذي سوف ينسيها وجوده كل ما فات أو جلّه، وعندما تعود في زيارة للمدينة بعد سنوات، وعندما تمرض وتموت بعد عمر طويل في قلب مدينتها الأم.

كذلك تذكرت مريم تلك الليلة التي دعت فيها ربها أن يلهمها فهمًا وصبرًا عندما راحت أمها شهيدة الحرب في مدينتها، بينما كان القصف يعلو حولها قررت هي أن تجد طريق ربها، وبالتالي فهمها لكل شيء آخر، فكّرت مريم أن الفقد يجعلنا نبحث عن الله بجوع أكبر، لا تغيب تلك الليلة عن مريم، تلك الليلة هي برهانها الأكبر على رحمة الله في حياتها، لكنها لا تستطيع شرح ذلك.

للحظات ليست قصيرة شعرت مريم أن هذه المرأة تمتُّ بصلة دم، ربما إلى جدتها التي كانت تتنبأ بمستقبل أحدهم عن طريق الماء،

مع أن الغريبة لا تتنبأ بشيء كما تفعل جدتها، وإنما تسرد قصة ما، ولكن بدا الأمر كما لو أنها ترى شيئًا لا تراه مريم.

أيقظ صوت الغريبة مريم من أفكارها:

- لقد أضاعني الله نفسه، هذا ما فكرت فيه بقهرٍ حينها، كان قد أخبرني هذا الرجل أني مسكونة بجانٍّ ما، وأنه لو بقي هذا الجان بداخلي فإني سأُصاب بمرض عضال وسأموت، قال لي أنه سينزع ذلك عني بقراءة القرآن، ثم تعرفين ربما كيف تجري الأمور مع هؤلاء.

كانت مريم عاجزة عن أن تفهم بوضوح ما كانت ترمي له الغريبة، تساءلت:

- لا أفهم، لا أعرف كيف تجري الأمور معهم.

شرعت الغريبة تجيب، وكان صوتها مُرًّا وقد امتلأ بغضب ما:

- إنهم يتحرشون جنسيًّا بالنساء، لقد عرفت بأثر رجعي لاحقًا عن هؤلاء الزمرة، يدعون بأن ذلك شكل من أشكال الوصل، أي أنهم عليهم أن يتصلوا بالآخرين جسديًّا كي يتحقق اللقاء الروحي. هل فهمتِ؟

فجأة ضغطت بيدها على صدرها كما لو أن ألمًا مفاجئًا باغتها هناك، سادت دقيقة صمتٍ أخيرة، ثم تابعت:

- إنهم يسرقون الله، يمسكون الخيط الأخير الذي يمسكه المصابون بالبؤس والقلق والخوف من أسنانهم، يرون الخيط ويرون تمسكهم المميت فيه، يعلمون جيدًا أنه خيط هؤلاء المهزومين والمسحوقين الأخير، يعلمون تلك الدموع التي تذرف بحثًا عن الله، ثم يقولون لهم أنهم يعرفون الله ويستطيعون أن يخبروهم بحكمةِ وجعِهم والغايةِ منه، ونحن يا لنا من أغبياء! نتبعهم حتى يطعنونا في الظهر، طعنة تمتد حتى القلب يا عزيزتي، حتى القلب، ولا نصحو إلا عندما نكون قد سقطنا مجردين من خيطنا الأخير ذاك.. لقد أصبحتُ لا أصدق أحدًا، كل من يتحدثون باسم الله كاذبون، كل الذين يبحثون عن الله عند أحد البشر هم ضائعون. كنت صغيرة لم أكمل العشرين من عمري ولكني للأسف لم أجد من يحذرني من هذا الدجل كله، ولكن في الحياة من النادر أن نجد من يحذرنا من وجع تجاربنا الحتميّ.

كانت مريم قد سرحت في خيالها تبحث عن قصص شبيهة، كانت تسمع كثيرًا عن متدينين متحرشين، عن رجال ذهبوا بعيدًا في الضلال، ولكنها لم ترهم، لم تستطع حقًّا تمييزهم، أما هذه الغريبة أو بطلة قصتها، أيًّا يكن، فقد بدت في عين مريم كغريقة مدّت يدها ليد

وحش أو كمن عرض جرحه على طبيب كاذب، فسكب بداخله حمضًا وأحرق كل نسيجٍ حيٍّ.

قاطعتها مريم:

- مهلًا، أنتِ تتألمين حقًّا، هل كل شيء على ما يرام؟ يبدو وكأنك تتحدثين عن نفسكِ... عن قصة حقيقية.

ابتسمت الغريبة وقد أبعدت يدها عن صدرها محاولة أن تبدو في حال أفضل، نظرت ناحية مريم كمن يحاول أن يكون لطيفًا رغم وجعه:

- لن أخبرك، أعلم أني أتحدث بصيغة الراوي، وذلك ضروري، ولكن ما الذي قد يعنيكِ إن كانت حقيقية قصتي أم لا، أنتِ لا تعرفين اسمي حتى. في نهاية الأمر تعلمتُ في الحياة أن قصص حياتنا لا يجب أن تكون واضحة كل الوضوح، كل ما يخطر على بالنا حدث أو قد يحدث في مكان ما، عقل الإنسان مصب هائل لما يدركه وما لا يدركه أيضًا. أخبرك بكل ذلك كي تكتبي عنه، وكي أرتاح أنا أيضًا. ليس عليكِ الآن أن تعرفي حقيقة القصص. أرجوكِ أنصتي لها وحسب...

في تلك الأثناء مر رجل وكلبه يتبعه، ألقى تحية باردة باللغة الألمانية، ثم تابع الطريق، هنا ضحكت الغريبة، مما أثار ريبة مريم مجددًا، كانت الأخيرة على قدر من الذكاء يجعلها تنتبه حتى لتغير نظرات مريم وريبتها، حاولت أن تطمئنها:

- لا عليكِ، كنت أريد أن أقول إن هذا الرجل المتدين لا يعترف أنه مشوَّه ومريض، يعتقد أن ذلك من حقه، من حقه أن يتحرش بالنساء، وأن يطَّلع على عورات البيوت، فقط لأنه يتعلم القراءات السبع للقرآن، ولأنه يهلل ويتمايل في مجالس بعض الصوفية، لقد كان هاوية، هاوية بشرية ليس فيها إلا العفن، ولكن، يا للأسف! مثله كثيرون.

لم يكن في حديث الغريبة ما يدعو لمجرد الشك أنها لا تعرف الشخص الذي تتحدث عنه معرفة شخصية، كانت المرارة في صوتها واضحة وتكاد تصير دموعًا، لكن مريم التي لاحظت ذلك لم تشأ أن تتمادى في الأسئلة، هي لا تعرفها ولا تعرف ما ترمي إليه من حديثها ذاك في ذلك الزمن المبتور من الغربة.

زمن من خوف 2006

في شقة صغيرة على ساحل المدينة استلقت ريتا على الأريكة البيضاء، على حجرها تضع رواية زوربا اليوناني، من النافذة يمكن للمرء أن يسمع صوت الأمواج وضوضاء الناس الذين يعبرون الكورنيش. تجلس ريتا كل مساء على أريكة بجوار النافذة المطلة على البحر، تستمع لصوت الموج الذي قد ساعدها منذ كانت صغيرة على تهدئة روحها، منذ تلك السنوات الأولى حيث تم تشخيصها بمرض ضعف التركيز وزيادة النشاط اعتادت أن تمشي بصحبة والدتها على الشاطئ حافية القدمين، وأن يجلسا طويلًا معًا لمراقبة الغروب، لقد قال الطبيب أن ذلك قد يعمل على تفريغ الشحنات الإضافية لديها.

لا تعلم ريتا إنْ كان ذلك قد نجح، ولكن رحلات المشي الطويلة تلك جعلتها تتعلق بالبحر كخلاصها الأجمل في الحياة، وكذلك توطَّدت علاقتها بوالدتها كما لو كانت صديقتها الوحيدة.

بينما لا تزال ريتا تجلس وهي تقرأ صفحات من رواية زوربا قرب نافذة البحر، يخرج زوج أمها من الغرفة، يجلس قرب ريتا على الطرف الآخر من الأريكة دون أن يتحدثا لفترة ثم، يبدأ بسؤالها عمَّا تقرأ، لا تجيبه، يشعر بأنه قد أخطأ عندما قرر البَدء بحوار معها للمرة الألف

دون جدوى، ينهض من مقعده ويجّه نحو النافذة، النوافذ بوابة من يريد الهرب إلى العالم الرحب، يحاول أن يهرب بنظره إلى البحر، يشعل سيجارة ويدخنها لمدة خمس دقائق، تلك الدقائق التي ترفع ريتا فيها نظرها عن الكتاب لتحدّق قليلًا بذلك الرجل الذي يحدق فقط ناحية البحر. لقد أوشكت ريتا أن تنسى متى كانت المرة الأخيرة التي التقت فيها عيونهما. كان ذلك حتمًا منذ أكثر من سبع سنين، لكنها لم ترغب حتى بتذكر ذلك. يتكرر المشهد كل مساء تقريبًا، ذات المحاولة البائسة التي تنتهي بعقب سيجارة يلقيها من الطابق السادس نحو الشارع، وتنهيدة عميقة، ثم صوت خطواته المبتعدة وهو يعود إلى الغرفة.

تحاول ريتا أن تكتم صوت بكائها كي لا تشعر بالضعف أمامه، فقد لزمها سنوات من الصمت كي تظهر أمامه أنها قوية ومتوازنة، سنوات وهي تخبئ أدوية الاكتئاب وهي تدّعي تناولها بانتظام كي لا يشكّوا في أمرها وأنها تحارب -إلى اليوم وهي في الخامسة عشرة من عمرها- وحدها أفكارها الانتحارية، سنوات وهي تحشو قلبها بالغيم وعيونها بضوء النجوم الشحيح مساءً كي تستطيع النوم بسلام وهي تحتضن دميتها.

في الحقيقة كانت المرة الأخيرة التي شعرت فيها ريتا بأنها آمنة في هذا البيت قبل خمس سنوات عندما كانت في العاشرة من عمرها، وكان ذلك يوم شتاء عندما أتى ليرافقها في طريق عودتها من المدرسة

كما يفعل من حين لآخر، وفي الطريق اشترى لها كوبًا من السحلب الساخن، في تلك الأيام الماطرة حيث كانت ريتا تسير تحت أشجار الحي المبللة الأوراق، وتترك قطرات المطر العالقة تنساب على شعرها ومريولها المدرسي هي أجمل أيام حياتها كما ستروي مرارًا لأمها وستحصل دائمًا على ذات الجواب:

- "الزمن لا يعود إلى الوراء يا ريتا".

في مساء ذلك اليوم حدث شيء لن تنساه تلك الفتاة التي كانت يومًا ما صاحبة شعر أشقر وضحكة تجعل التيارات في الماء تضطرب سحرًا.

كان الوقت عصرًا عندما رأت طيفًا ما يحدق إليها من فتحة الباب الموارب قبل أن تشعر بذلك الطيف يقترب منها، وقبل حتى أن تشعر بالخوف باغتتها اللمسة على عنقها والتي امتدت إلى صدرها، نبض قلبها بقوة، كادت أن تسمع نبضها يأتي من مكان ما خارجها، لم تنظر إلى الوراء، أبقت نظرها مركزًا على صفحة درس اللغة العربية أمامها، هناك حيث طبعت قصيدة نزار قباني "في مدخل الحمراء". بقيت عيونها هناك دهرًا قبل أن تصحو وتصرخ منادية أمها دون أن يأتيها صوتها أو حضورها فينقذها.

تتذكر ريتا كيف وقفت في الزاوية ترتعش بكامل جسدها وهي تحاول أن تضع رأسها بين يديها، لم تحاول أن تفتح عينيها، ولا أن تشعر بالأمان لرؤية أمها التي دخلت الغرفة مذعورة بعد ساعات حينما عادت من مشوارها، لم تحرك جسدها ناحيتها أيضًا، بدا العالم غريبًا جدًّا، بدا وكأنه ينهار، كأن الطفولة قد كانت حلمًا، كما أن البيت بأكمله حلم.

سمعت والدتها تصرخ بزوجها:

- لماذا؟ ريتا ابنتي الوحيدة؟ لماذا؟

لم تر ريتا ما حدث، ولكنها سمعت صوت ضربه لوالدتها، تبعه صراخ أمها، كان الصراخ يبتعد، أصواتهم الغاضبة تصبح الآن في الممر ثم في غرفة نومهما، سمعت صوت إغلاق باب الغرفة عاليًا، وكأنه ضربة على أذنيها، وجعلها تفتح عينيها للمرة الأولى، لم ترد أن تترك الزاوية، في أعماقها تمنت لو تبقى في هذه الزاوية إلى الأبد، ألا تحتاج إلى أن تتحرك أو تفهم، بقي جسدها يرتعش، لا تعلم كم مر عليها من الوقت وهي جالسة هناك قبل أن تخرج أمها من الغرفة وهي تبكي وتبحث عنها في الزاوية، وقفت والدتها مشدوهة قليلًا، كان شيء ما في وجه ريتا قد تغير، هذا ما استطاعت ريتا استنتاجه من طريقة تحديق والدتها بها، لكن ريتا لم يكن فيها من القوة ما يجعلها قادرة على

النهوض، تركت نفسها ترتمي في حضن والدتها المذعورة مثلها. أخذت أمها تهمس لها بصوت متهدج تغالبه الدموع:

- "لا بأس".

في الأيام اللاحقة التي ستُصاب فيها ريتا بحمى شديدة ستجلس أمها بجوارها طيلة الوقت، ولن تلمح إطلاقًا طيف زوج أمها في البيت، كانت لا تزال في العاشرة من عمرها، في غرفتها الصغيرة شاهدت جدتها خلال زيارتها وهي تخبئ أسفل وسادتها بعض القطع المعدنية، مرة لمحت ريتا مريم جارتها بصحبة والدتها، لقد مر كل شيء كخيالاتٍ حولها، بينما هي تصارع الحمى والذاكرة معًا.

علمت ريتا لاحقًا عن تلوُّن شعرها كاملًا بالأبيض، ولكن ذلك لم يكن مهمًّا بالنسبة لها، بقي من تلك الأيام الصعبة بالنسبة لريتا تلك الأمنية التي رددتها كدعاء متواصل أن تموت بسرعة، وبالمقابل كانت تصارعها فكرتها بأنها تريد فقط أن تواجه الحياة لأجل ألا تترك والدتها وحيدة.

لقد ابتعد عنهم لسنة في سبيل علاج نفسي، وسافر للخارج، وعندما عاد كان على ريتا أن تواجه صور الصدمة من جديد.

- أنـا لا أسـتطيع أن أعيـل نفسـي أو أعيلـك يـا ريتـا، فـور أن تسافري إلى الخارج سأطلب الطلاق وأسافر كي أكون معك.

قبـل غـروب كل شـمس لاحـق ومنـذ عودتـه إلى البيـت يخـرج زوج والدتها من غرفته ويحاول أن يكفّر عن ذلك اليوم، فيلقي التحية على ريتـا، أحيانًـا تنتابهـا موجـة مـن الشـفقة عليـه، تحـزن لأجلـه، لا تكرهـه ولكنهـا حتمًـا لـم تعـد تتقبلـه. بقيـت والـدتها فقـط بينهمـا امـرأة وحيـدة وضـعيفة لا تسـتطيع أن تخـرج وحـدها لمواجهـة العـالم ولا تسـتطيع أن تترك ابنتها:

- لا تقلقي يـا ريتـا، لقـد اجتزنـا كل هـذه السـنوات معًـا، لـم يبـقَ سـوى ثـلاث سـنوات ثـم تبلغـين ثمانيـة عشـر عامًـا وتغـادرين لإكمال دراستك في الخارج، حينها لا تعودي.. لا تعودي أبدًا يا ريتا.

زمن من حلم 2013

في الليل، يتناهى إلى سمع مريم صوت بائع الترمس الذي لا يعبر إلا ليلًا، في ليالي الصيف، ينتظر أهالي الحي مروره. في ذلك المرور يشيع أمان خفي، ثمة شيء ننتظره في الليل، ثمة إنسان نحتاج مروره كي نستشعر حضورًا ما بشريًّا ووديعًا في الطرقات التي يهجرها الناس دومًا في الساعات الأولى من الليل، لكن عندما يأتي هو، عندما ينادي بالترمس الذي يحمله على ظهره، يرى الناس في ندائه شرعية للخروج وطلب بعض الترمس منه، عادة ما يتولى الصغار تلك المهمة، تكون أحذيتهم مُعَدة بجانب الباب، يتناولون العملات المعدنية ثم يوقفون البائع المدعو بندائه بلقبه المعروف "أبو كويك".

هناك في السلة المثبتة على مقدمة دراجته الهوائية تكون أكياس الترمس مُعَدة وجاهزة بانتظار يده تخرجها وتناولها ليد طفل ما، سيركض التالي بدوره عائدًا إلى البيت كمن قام بمهمة بطولية في جوف الليل وجلب للسهرة كيس ترمس مع بعض قطع اللوز البيضاء والليمون المقشّر.

عادة ما يخرج وديع ليشتري من أبو كويك ثم يعود بالترمس اللذيذ لأخته مريم كي يتناولاهُ معًا، تحب مريم تلك اللحظات البسيطة.

في ذلك العام فكرت كثيرًا بمحمد، انتظرت أن تراه مرة أخرى في الحي. وقد كان ذلك في إحدى الليالي عندما نزل وديع لشراء الترمس، بينما هي أخذت تراقب أخاها من الشرفة، وبينما وديع يتقدم باتجاه البائع كانت مريم قادرةً على رؤية ظل شاب طويل يتقدم من الاتجاه الآخر وبيده سيجارة مشتعلة، شعرت مريم بقلبها ينبض بقوة رغم أنها لم تكن قادرة على تمييز الملامح بوضوح، ولكنَّ ثمة أشياءَ لا نحتاج لإدراكها تمامًا، أشياء تُعرف من خلال القلب، كما شعرت بقلبها بوفاة والدتها قبل أن تسمع الخبر من الناس.

استدار وديع عائدًا ناحية البيت، بينما نظر مريم ما زال مركزًا على الشاب، هو بدوره نظر للأعلى هناك حيث تقف، ظل فتاة على الستارة، ارتجفت السيجارة في يد محمد، وكان ذلك انعكاسًا لارتجافة أعمق في القلب، مضى الآن شهر كاملٌ على اللقاء مصادفة بصحبة أبيها بعد انتهاء الدوام الدراسي، كان هذا الشهر كافيًا ليشتعل شيء ما في القلوب الفتيّة، شرارة تغذّي الخيالات الشابة في مدينة مسحوقة ومقهورة.

هبت نسمة باردة شعر بها كل من مريم ومحمد في ذات الوقت، تلك النسمة التي غسلت أرواحهما بفرحٍ غرير، فرح لا يشبه فرح مريم بمعدلاتها العالية، ولا فرح محمد بفوزه في مباريات كرة القدم بين الحارات. على الرغم من أنهما لم يتبادلا أي كلمة فقد كان شيء ما

يقيني قد وُلد بينهما. هذا الشيء الذي لا تخمده السنون مهما كانت قاسية ومُجحفة.

بعد أسبوع تجرأ محمد وأرسل لها طلب صداقة على موقع الفيس بوك، فرحت مريم بتلك الإضافة كثيرًا، بدأت بينهما محادثات كتابية لم تتعدَّ في وقتها السؤال عن الدراسة والأحلام.

ولدت في روح مريم ثمرة غريبة، في الليل تتخيل أنها صارت أمًّا لطفلين، لا ترى نفسها إلا بصحبة محمد وقد صار رجلًا قويًّا يقف بجانبها، هناك صورة محددة هي التي ترتسم بين الحين والآخر، صورة لهما يجلسان فيها على مقعد حجري على شاطئ البحر، هي تضع رأسها على كتفه، الريح تبعثر شعر كليهما، يجلس في حجرها ابنتهما الصغيرة، بينما يقف بين ساقي محمد ابنهما الأكبر، الجميع يبتسم في تلك الصورة، بما في ذلك مريم الآن وهي في السادسة عشرة من عمرها تتأمل وتتعلق عيناها بشوقٍ إلى ذلك الحلم البعيد كي ينقذها من أيامها الحالية، وحدتها وشوقها الذي لم يقل لحظة لأمها، لرائحة الخبز من ذلك اليوم حيث كان من المفترض أن تعود وتستمر الحياة طبيعية كما كانت مرصعّة ببعض الورود والآلام، ولكن حيث يكونون جميعهم معًا، هي ووديع ووالدها وأمها.

كانت مريم تستعيد مع محمد فكرة أن يهتم أحد بتفاصيل أيامها، أن يستمع لها شخص ما باهتمام، تروي له تفاصيل الدرس، وكيف أنها كانت الأولى في حل مسائل الوراثة في مادة الأحياء وكيف صفق لها الفصل بعد إلقائها القصيدة في حصة اللغة العربية:

"لقد ألقيت قصيدة لأحمد دحبور اليوم، ربما تذكرها حكاية الولد الفلسطيني، أخشى أن أنسى هذه الأيام، لهذا أحدثك عنها، لقد شعرت كما لو أني ألقي شعرًا في قلبي وليس أمام الطالبات، ثم إنهم صفقوا لي بعدها، لقد كنت سعيدة. لماذا لا تستمر مثل هذه السعادة لوقتٍ أطول؟"

ثم تضيف بحماسة:

"كي تستمر السعادة علينا أن نتحدث عنها، أن نتشاركها. أليس كذلك؟"

كان محمد الذي بدا أكثر سطحية من مريم يؤمن بطريق واحد للحرية وهو القتال، كان يقول لها:

"أنا لا أومن بالكلام والشعر، سنين ونحن نكتب ونروي، لكنَّ شيئًا لم يتغير، أتعلمين يا مريم، عندما أكبر سأقاتل حتى استشهد كما فعل عمي محمد".

كانت مريم تخاف عندما يتحدث إليها عن حلمه بالشهادة، كيف يحلم ابن السابعة عشر بالموت؟ وكيف يرسم مستقبله كاملًا متمثلًا في لحظة موته؟ أحيانًا تشعر مريم بالخوف حقًّا، إذ لا يحدثها عن زواجهما وحياتهما معًا كما يحدثها عن الشهادة وعن عمه، كيف كانت صورة عمّه المعلقة أهم ما في البيت، عن لحظات بكاء أبيه في عزلته، عن نوبات قهر جدته المفاجئة، بالنسبة لمحمد كانت تلك الصورة ليست فقط شيئًا من الماضي، وإنما أيضًا انعكاس لشيء ما في المستقبل.

لم يتحدث مريم ومحمد أبدًا وجهًا لوجه، ذلك كان محظورًا في المدينة، إذا ما علم أبوها بأنها تحادثه فقد يضربها أو يحرمها من المصروف لأيام، ويلعن البنات وخلفتهم وكل ما يجلبونه من همٍّ لآبائهم.

"أتمنى أن نلتقي.. وكل ما أحلم به أن نجلس معًا في المتنزه القريب ونحن نشرب العصير ونراقب غروب الشمس". مريم.

"سنلتقي يا مريم كثيرًا. أعدكِ". محمد.

زمن من شمس 2009

كانت الساعة الثانية بعد الظهر في يوم مشمس جميل، يفتح محمد باب المنزل بنسخته من المفتاح، يشم رائحة الثوم المقلي تفوح من المطبخ، يدلف هناك وهو يلقي التحية على جدته، يراها واقفة ذاهلة أمام إناء الطبخ، بينما يتصاعد الدخان حولها، أُصيب محمد بالرعب وهُرع نحوها محاولًا أن يوقظها من شرودها، تنتبه إليه ويتسارع تنفسها في محاولة للعودة إلى الواقع سريعًا، تحدق فيه باستغراب، عيناها مغطاتان بطبقة كثيفة من الدمع، تفوح من يديها رائحة الزيت والثوم. يصرخ بها محمد:

- ايش مالك يا ستي؟ وين كنتي؟

- أنا هيني يا ستي باطبخ، كنت.. كنت.. بأدور عالملح.

انتبه محمد أنه تحدث بصوت عالٍ مع جدته، حاول ملاطفتها بأن يبحث معها عن الملح، وقال لها ممازحًا وهو يتناول المرطبان ويعطيها إياه:

- هاي أحلى ملح، اتفضلي.

كانت تلك اللحظة بداية اكتشاف إصابة جدته بالزهايمر، بقيت بعد ذلك سنوات تعاني قبل أن ترحل، كان محمد لا يزال في الثالثة عشرة من عمره، كان عليه أن يعتاد نوبات النسيان تلك، حيث تنسى جدته من يكون وما اسمه، تنادي والده «باسلًا» باسم «محمد» أخيه، وتنادي على الصورة فتترحم على «باسل» الذي لا يزال يجلس بجوراها، لم تكن تدرك في آخر أيامها مَن الذي رحل حقًّا ومَن الذي بقى، حتى أتى اليوم الذي وقعت فيه، حيث كانت تبحث عن المرحاض الذي نسيت مكان تواجده في المنزل، أُصيبت بعدها بنزيف في الدماغ قبل أن تموت في نفس المشفى الذي صعدت منه روح محمد إلى السماء وهو ينادي عليها.

كتب محمد لمريم مرة يخبرها فيها عن تلك الفترة:

"كانت أيامًا صعبة وغريبة، الأم روح المنزل، وبالنسبة لبيتنا كانت جدتي هي صاحبة تلك الروح الطيبة، لم تنزع الحداد على عمّي أبدًا، وعندما لم تعد قادرة على تمييز صورته في آخر أيامها بسبب المادة البيضاء في عينها كانت تبكي وحسب، تبكي بحرقة تجعلنا نحن أيضًا نشاركها البكاء. ياه يا مريم، قبل أن تموت بأيام حدث معها كما يحدث مع مرضى الخرف، استعادت ذاكرتها للحظات، وقالت إنها رأت في المنام محمدًا وهو يحصد أرضهم في أراضي فلسطين المحتلة قبل 1948، وكان يحصد قمحًا ويضحك، ثم صمتت وقالت "والله العليم

أنـا رايحـة لعنـده" ومـن وقتهـا لـم تعـد لهـا ذاكرتهـا لأيـام متتاليـة حتى سـقطت ورحلت إلى الأبد.. لـم يعد في البيت طعم كما كان، أعلم أنك مررت بشيء مؤلم ومشابه بفقدانك أمك، وحتمًا كان ذلك أصعب".

زمن من غدر 2022 – الغريبة

أوراق الشجر تتساقط على أكتاف مريم، تسترق النظر إلى جمال الغريبة الساحر، إلى القسوة التي طُبعت في عينيها، إلى شفتيها وهي تضغط عليهما وكأنها تمنع نفسها من إفشاء سرٍّ ما، كلما لامست ورقة يابسة كتفها أو وقعت في حضنها تناولتها بحنان، ومن ثم تضعها على الأرض، لم تعرف مريم إن كانت قد انتهت من قصتها الأولى أم لا، لكنها وجهت كلامها لمريم:

- باستطاعتك أن ترحلي، هناك قصص أخرى ولكن ليس عليكِ البقاء، أعتذر عن صراحتي المفاجئة، ليس من الطبيعي أن أفعل ذلك، أتفهمك جيّدًا وأتفهم ارتيابك ولكني أستطيع أن أخبرك أنه ليس مصادفةً أننا التقينا، تذكري ذلك، وتذكري أيضًا أنه ربما لا نلتقي أبدًا لاحقًا.

كان الفضول هو الدافع الوحيد الآن لدى مريم، أرادت أن تعرف كل شيء باستطاعتها معرفته الآن من هذه المرأة، ولم تفهم لماذا تجزم الغريبة أنها ستكون المرة الأخيرة، القرية صغيرة جدًّا، وقد تجمعهما دومًا فرصة لقاءٍ آخر قبل رحيلها الفعليّ عن القرية، فلماذا تُفقدها

الأمل منذ الآن وتفترض مثل هذا الافتراض؟ أجابت مريم بحزم لتنهي ارتباك الغريبة:

- أود سماع كلامك حتى نهايته، ليس لديّ ما أفعله اليوم.

ابتسمت الغريبة بفتور هذه المرة، مرت سحابة من كآبة على محياها فنكَّست رأسها قليلًا وقد عاودتها أفكارها الحزينة بأنه ما من أحد يكترث حقًّا للحكايات، قد يستمعون لها بإمعانٍ ولكن دون ذكرى، الذكرى لغة اتصال المسموع بالروح، فما ليس منا لا يصل لروحنا، وبالتالي لذكرانا. ابتلعت الغريبة الغصّة كمن يمنع نفسه من البكاء فجأة، بدا الحزن مسموعًا في صوتها وهي تروي الآتي:

- هل يخون الجميع يا مريم؟ ذلك السؤال حيّرني كثيرًا، لقد قابلته، رجل في الثلاثينيات من عمره، وكان قد عقد قرانه حديثًا على امرأة من بلاده، لم أكن أعرف وجهها ولم أرَ صورة لها، حتى خبر ارتباطه علمته مصادفة لاحقًا، فهو لم يكن يجهر به، أخبريني يا مريم؟ هل يخون المحِبُّون؟ هل يخونون وهم في أوج انتظارهم لمن يحبون؟ ومع من؟ مع امرأة لا تفكر سوى بوطنها الضائع وبيتها المبني من الأسبست في مخيم بعيد، مع امرأة لم تكن تفكر إلا في كيف تعين أهلها البعيدين، وكيف تعين نفسها، مع امرأة تبحث عن الحب في جحور النمل والزوايا التي لا يصلها المطر، لأن قدرها

-كما توقن منذ صغرها- أن تحيا حياة مغمورة بالحب..؟ لقد خدعني واستدرجني لعالمه، عالم من أكاذيب.. كان يخبرني عن مشاعره، وفي حينها كان يبدو طيبًا وسمحًا، وقد كنتُ عمياء كثيرًا.. لقد كنت أخبره بأن ذلك خطأ، وكان هو يواسيني بأنه ليس خطأً، حتى لقد نسيت التفكير بخطيبته تمامًا كما نسي هو، ثم عندما تزوّج منها وكم أشعر بالشفقة عليها، امرأة ساذجة مخدوعة، أخبرني بكثير من أسراره، أنه قد مارس علاقات كثيرة قبل زواجه، رغم أنه كان يصلّي ويصوم ويخون، أنا لم يكن يهمني كشخص، كان يهمني عدل الله! فقد تركني وأهانني وكسر شيئًا ما عزيزًا في روحي، كنت أرى أشباحًا سعيدة تحوم حول بيته، وكان ذلك يقهرني. لا أعلم كيف أشبّه لكِ الأمر. أنه المعضلة الأكبر أن تكوني مظلومة ثم تجدي من ظلمك سعيدًا، هل تظنين حقًّا أن الخونة يمكن لهم أن يكونوا سعداء؟ هل من العدل أن يسعد الظالمون؟

تحشرج صوتها بالدموع، ضغطت بيدها مرة أخرى على صدرها ناحية اليسار كمن يعتصر قلبه مجددًا قبل أن تستأنف:

- لقد تمادى في ظلمه وقد حرمني حتى مِن أن أخبره الحقيقة، حقيقة أني كنت امرأة عصية طيلة حياتي، وأني لا أكترث بعالمه، وأنه خائن، وهذا البيت المبني على غدر لا بد أن

ينكسر.. لكني تعبت وقررت بدل ذلك أن أبكي بصمت.. كنت أرى زوجته وهي تبتسم بسذاجة وحماقة كبيرة، تخبرني عن حنانه وكرمه، أحاول أن أتحمّل ثقل الحقيقة وحدي، وكنت في منتهى العذاب والوحدة حينها، لا أهل ولا بيت ولا أمل، أعاني من نوبة اكتئاب مزمن منعتني حتى عن صده عندما تقرّب من جسدي مراتٍ عديدة، وسمحت له بأن يكون ملجأً كاذبًا لي، ملجأً مليئًا بالوحوش والأفاعي والغدر، المهم عندما كنت أراها تبتسم بغباء كنت أود لو أمنحها الحقيقة وأمضي، ففي النهاية هي من تعيش مع هذا الشخص وليس أنا، هي من تحبه وتسمع منه عبارات الحب الكاذبة، هي لا أنا مَن تجد مَن يساندها في غربتها، وتجد من يُشعِرها بأنوثتها، ثم لاحقًا هدأت وقد احتجت لهذا الهدوء الكثير من الإيمان والليالي، وفهمت أن الحياة تمنح الحقيقة فقط لمن يستطيعون حملها.. وأنا كُتب عليَّ أن أحمل في قلبي دومًا سر هذا الرجل الذي لا يستحق سوى النسيان.

أصبحت مريم مشوشة، فكرت أن المرأة الغريبة تخبرها بقصص حدثت معها حقًّا شخصيًّا، ولكن ربما تخجل من قول الحقيقة علانية، ولذلك اخترعت ذلك السيناريو. تذكرت مريم محمدًا، داعبت مخيلتها ذكراه وهو يقبّل جبينها بحنان ويخبرها بحبه لها على درج بيتها، وفي لحظة كانت سريعة كالبرق، وتذكرت كيف أنه رحل ثم عاد ثم

رحل، لكنه لم يطبع على جبينها تلك القبلة السماوية مرة ثانية أبدًا.. فقد كان في كل مرة يبتعد أكثر.

سمعت صوت الغريبة يوقظها:

- لقد كنت أبكي كثيرًا بينما لم يكن يندم هو بدوره، ثم ماذا كانت النهاية، أن تزوج وأصبح أبًا، هو الذي أغوى واعتدى، أما أنا فتركت في صلواتي أبتهل وأعتزل كل فرح وذكرى، لقد كان ذلك مؤلمًا جدًّا لدرجة أنني في إحدى المرات أمسكت سكينًا حادًّا وأوشكت أن أقطع أوردتي وأنتحر، كنت أريد أن تنتهي تلك الحياة التي كنت فيها تسلية وشيئًا ما عابرًا. كنتُ قد اعتقدت وتلك الفكرة الأقسى على الإطلاق أن الله تخلّى عني...

قفز السؤال سريعًا إلى ذهن مريم:

- وكيف انتهى ذلك؟

- لا أعلم، لكني أعلم أن الله كان ينظر، وقد رأى وسمع كل ذلك، وقد سمع قلبي وما فيه، وهذا ما يهم، لا أعلم شكل العدل الإلهي الأنسب، ولا أدري إن كنت سأعاينه بنفسي يومًا ما، لقد آذاني هذا الإنسان كثيرًا، فتح قلبي وألقى فيه قاذوراته، ثم استعففَ واستكبر وكأنه كان حلمًا في الحياة، وهنا كانت رجولته

الناقصة وإنسانيته الضحلة... وهنا كان سقوطي في ذات الفخ مجددًا، حطموا ثقتي في نفسي يا مريم، مرارًا وتَكرارًا، حاولوا محو ثقتي في عوض الله الذي سيأتي عمّا قريب، ولكنهم لم ينجحوا.

شعرت مريم بدورها بمرارةٍ وقهرٍ كبيرين، هي امرأة وتفهم جرح النساء الذي قد لا يندمل، تذكرت صديقتها ريتا التي بقيت لسنوات ترممّ قلبها بسبب زوج أبيها، وتذكرت جرح محمد لها الذي لا يزال نازفًا إلى الآن.

تجرأت مريم لكي تسألها:

- أشعر أنك هذه المرة تتحدثين عن نفسكِ؟

رأت مريم في عين المرأة حزنًا عميقًا، أصبح صوتها خافتًا وهي تجيب:

- لا، لا أتحدث عن نفسي مريم، لست بحاجة لتلك المسرحية، ففي النهاية لن نلتقي بعد الآن، كاد الأمر ليكون سيان أن أخبرك أن تلك القصص هي قصص حياتي أنا، ولكني أنا تلك الذئبة التي حملت جروح النساء بداخلها حتى صارت جروحها هي.

صدرت عن مريم تنهيدة عميقة، أصبح أكيدًا لها جنون هذه المرأة، شعرت مريم بثقل على صدرها، عبرت صورة أمها في ذهنها مما

أشعرها بمزيد من عدم الأمان بصحبة هذه الغريبة، أرادت مريم النهوض والرحيل فورًا، مدت يدها مصافحة الغريبة وهي تقول محاولة تجنب التقاء أعينهما:

- شكرا لكِ، كما وعدتك قد استمعت لك، وسأحاول أن أكتب عن تلك القصص، أمنياتي الجميلة لكِ.

لكن مريم شعرت بيد الغريبة تضغط على يدها، سمعتها تصدر ضحكتها القصيرة ثم تقول:

- أنتِ لا تفهمين! تلك القصص التي قد يراها المرء متوسطة المأساة وأن المرء بوسعه النجاة منها، قد غيّرت حياة أشخاصها للأبد. ذلك ما يهم، العواقب وكيف تؤثر الأشياء فينا. تلك المرأة التي تحرش بها صوفي، تعلمين كم عانت لتجد الله مجددًا، وتلك الفتاة التي حاربت كل شيء في غربتها، أتعلمين كم كلفها الأمر لتثق برجل مجددًا، لتثق بعدل الله من جديد؟ ليهدأ قلبها وتبكي من قرة العين؟ أنتِ لا تفهمين.

لم تجد مريم ما تقوله، عاودت الجلوس وسرحت بنظرها بعيدًا، أتاها صوت الغريبة.

- أنـا أحمـل جرحـكِ أيضًـا.. جـرح الفقـد. أعرفـه جيـدًا يـا صغيرتي.. لا ترحلي أرجوكِ

شـدّت الغريبـة مجـددًا على يـد مـريم، حـدقت فيهـا وقـد التمعـت دمـوعٌ حارقـة في عينيهـا كمـا يحـدّق المـرء ببركـانٍ انفجـر على مسـافة قريبـة، ولا مفـر سـوى انتظـار أن تحـرق الحُمَمُ كل شيء، حـاولـت مـريم أن تفلـت يـدهـا من تلـك القبضـة، كانت كأنمـا أنيـاب ذئب حقيقي يعـض على يـديهـا الآن، اختنـق صـدر مـريم عنـدمـا تحـدثـت الغريبـة عـن الفقـد، وعندما عجزت أن تصير حرة من تلك المرأة صرخت:

- مـاذا تعـرفين عـن فقـدي، هـل تعـرفين عـن والـدتي التي ماتـت، والـدي الـذي تـزوج عنـدمـا كنـت في الثـانـويـة العـامـة، أم هـل أنـت على درايـة بمحمـد الشـخص الـذي اتفقـت على اللقـاء معـه في الغربـة، وكان حـب حيـاتي كلّهـا، وعنـدمـا أتى لي بـالـورود إنمـا أتى لي بمقدمة رحيله عني.

أفلتـت الغـريبـة يـدهـا، نهضـت مـن مكانهـا، وحـاولـت ضـمّ مـريم إلى صـدرها، كانـت بـلا شـك تكبرهـا بسـنوات عـديـدة، النـدب على رقبتهـا يسـطع تحـت أشـعـة الشـمس، ويتشـرب الـدفء، أخـذت نفسًـا عميقًـا، مـدت يـدهـا إلى وجنتَيْ مـريم، ومسـحت الـدموع التي انهمـرت هنـاك،

نظرت لمريم بحزنٍ غريب، بحسرة أمٍّ على ابنتها التي تألمت في الحياة أكثر بكثير مما توقعت، وحاولت الردء عنها في الصلوات، قالت:

- أنا آسفة يا صغيرتي، لكني لم أقصد ذلك، لديّ حدسٌ قويّ، ولهذا شعرت بأنك قد عايشت تجربة الفقد، حسنًا لقد جعلت الأمر ربما دراميًّا لأني أخجل، أخجل أن أخبر تلك القصص لشخص سوى الله، ولكني لم أعد قادرة على التحمّل، ولأنه لآخر لحظة من عمري أود إنكار الشر الكامن في الناس ولأنه...

اختنقت الكلمات في مكان ما في روحها بدموع لم تسل بعد، وتابعت وهي تحاول تجنب مواجهة عيون مريم:

- لقد ماتوا يا مريم، النساء اللاتي مررن بهاتين التجربتين قد مِتْنَ، أعرفهنّ شخصيًّا، ولهذا تحدثت بهذا الغضب، ولكني أريد أن أخبرك بالنهاية، نهاية الدجال الشيخ، ونهاية ذلك الشاب الذي خان وتلاعب بمشاعر امرأة وحيدة وقلبها، تلك النهاية التي لم تحدث بعد، ولكني متيقنة منها.

أردتُ أن أخبرك أيضًا عما أشعر به ناحيتك، بالتأكيد لم أعرف تفاصيل حياتك، ولكني أرى شيئًا ما يسطع ويقترب بنوره لأجلك، تحديدًا وتمامًا من حيث ألم الفقد ينبع ويجتاح كيانك الغض، من ذات الثقب في الروح أرى نورًا يعبركِ.

أغمضت مريم عينيها وجلست القرفصاء وهي تسند ظهرها إلى جذع شجرة عملاقة، شعرت وكأنها تتنفس الضوء، كأن الزمن يرشح من مسامّها كحبات عرق ويتبخر، أنها صارت للحظات إنسانة بلا ذاكرة، لم تكن ترغب بقول شيء، ولكن فضولها دفعها لتسأل عن النهاية التي تقبع في المستقبل.

- حسنًا ماذا سيحدث مع الدجال المتديّن؟

قاطعتها الغريبة بنبرة حادة وصححت لها سؤالها:

- بل ماذا حدث، المستقبل هو الماضي الأكيد، الماضي الذي يصنعه الإيمان. حسنًا لقد اختنق إيمانه، صار قلبه معتمًا بالكامل، أُصيب بالاكتئاب ونوبات من الأرق والكوابيس التي لا تنقطع، فتكَ المرض بجسده وصار نحيلًا ضعيفًا للغاية، ملقًى على سرير، حيث امتلأ جسده بالتقرحات التي تفوح منها رائحة كريهة، لم يعد قادرًا حتى على استحضار الله في قلبه لطلب الرحمة، ولم يعد قادرًا على تلاوة القرآن بلسانه الثقيل بعد إصابته بجلطة دماغية.

كانت مريم متعجبة من المرأة وهي تتحدث عن المستقبل كما لو أنه الماضي، صدرت عنها ضحكة مقطوعة، ثم تكلمت:

- قبل كل ذلك، سأموت بينما هو يتابع حياته متحرشًا وقذرًا، لكني لن أموت منزعجة، هناك يا مريم في الحياة ما هو أكبر من الزمن.. ما يجعلنا لا نأبه للسنوات والأعمار، إنه الإيمان. أنا منذ الآن مطمئنة.

ضحكت مريم وهي تتساءل باستغراب:

- لكن ذلك لا يبدو من طريقة كلامك.

في داخل الغريبة، تلك الروح الواسعة كبلاد، والوحيدة كزنبقة في أرض وحلة، المرأة التي تحمل على جسدها ندوبًا كما تحمل مثلها في روحها، وقفت في تلك اللحظات تحاول أن تخبر مريم كيف يكون شعور الانكسار، وكيف تضيع البوصلة، ومع ذلك يحاول المرء أن يمسك بيأس بالخيوط الأخيرة، كيف تخبر مريم أن انفعالها ذلك نابع من استعجالها العقاب الذي هو آتٍ لا محالة، وكيف تخبرها أنها تفعل ذلك لأجلهن، صديقاتها اللاتي رحلن.

- كيف أخبركِ بذلك، لقد قررتا الرحيل لأنهما لم تستطيعا رواية ذلك لأيٍّ ممن كانوا حولهما، ما كان أحد ليفهمها، ليفهم كيف تكون الضحية امرأة لأنها فقط امرأة، لقد سمعت منهما كل شيء، وقد تعبت من حمل هذا السر، لقد ماتتا لأنهما لم

تستطيعا مواجهتهما، لكن لا تسأليني الآن كيف رحلتا رجاءً، تلك ذكريات موجعة جدًّا، ربما أستطيع سردها وربما لا...

ابتلعت ريقها بصعوبة ثم تابعت:

- ذلك الرجل الذي كان مرتبطًا، كان يلاحق صديقتي خلال فترة ارتباطه، جعلها تتعلق به بطريقة ما، رغم صدها له، ولكنها استسلمت لكآبتها ووحدتها في النهاية، كلنا قد نكون ضحايا أحيانًا لفكرة أن لا أحد يسأل علينا، لفكرة أنّ أحدًا يحبنا أو يريدنا بقربه، أعلم جيدًا مدى قرب صديقتي هذه من الله، كيف كانت تدعو الله كل ليلة، تخرج في الليل البارد لتمشي وحدها حتى تتعب قدماها وتجثو أرضًا على ركبتيها من وجع الذكريات، أعلم كم مرةً أسندَتْ فيها رأسها إلى جذع شجرة وبكت وهي تتمنى الموت. كان وجعها ينبع من عدم عدل ما جرى، من ثقل الذنب وجرح كرامتها وأنوثتها العميق.

صمتت قليلًا وهي تحدّق ناحية السماء، بدت رقبتها طويلة وناصعة، جميلة كرقبة بجعة وحيدة في بحيرة، نظرت ناحية مريم ولكنها كانت شاردة في نقطة ما في الأفق أبعد من مكان جلوسها، وتابعت:

- كانت تبكي لأنه هو الذي فتنها، لقد طبع على شفتيها القبلة الأولى في حياتها، وعندما ضمّها إليه أخبرها كم تنبع منها كمية من الحب والحنان، لقد قالت لي بعض التفاصيل، بأثر رجعي طبعًا، بعدما تبخرت تلك الأوهام الدافئة، لم تكذب عليه، لكن عندما تزوج وحاول إظهار حبه المزيف لزوجته تلك، كانت تشعر كل يوم بسكينة في قلبها، هي لم ترد كل ذلك، ولكنه تلاعب بها، بحلمها البسيط أن تكون امرأة وحيدة في عين أحدهم، لماذا يتلاعب الناس ببعضهم البعض؟ حاولت مرارًا أن تتكلم معه، أن تروي له حقيقة شعورها ووجعها، إلا أنه كان غارقًا في سعادته الشكلية مع زوجته.. لكن ذلك أيضًا انتهى منذ زمن بعيد، لقد رحلت صديقتي وانتهى الأمر، لكن عدل الله أصابه في قلبه.

قاطعتها مريم متسائلة:

- هل تتحدثين الآن عن الماضي؟ أم عن المستقبل بصيغة الماضي؟

- بل عن الماضي يا مريم.. لقد انفصلا حقًّا، بقيا معًا في نفس البيت، ولكن لا يجمعهما سوى الجنس والمسائل اليومية كزوجين بائسين، رأيت عيون زوجته لاحقًا وهي تجر عربة ابنتهما الصغيرة، وكنت أرى أمامي امرأة ميتة، تبخر البريق الذي شاهدته

صديقتي في عينيها عندما كانت تحكي لها عن حبها لزوجها وهدية الهاتف المحمول الباهظ الذي اشتراه لها في عيد ميلادها الأول معه، لم يبقَ سوى الجفاف والمدى الرماديّ يحدق إلى حاضرها من خلال ماضي ما حدث مع صديقتي هناك، لقد ماتت روح ذلك البيت، ماتت وانخنقت بأسئلة صديقتي التي حرمها هذا الإنسان حتى من معاتبته، كانت وحدها وشعرت بكرامتها تتضاءل حتى فضّلت الموت على كل ذلك، لا ألومها، أتفاجأ عندما يموت الناس فجأة في الغربة فما بالك بمن أُهين وانكسر في البعد أيضًا؟ كانت باستطاعتها أن تخبر زوجته الحقيقة كاملة، ولكنها لم تفعل، قاومت كي تبقى إنسانة، حاربت رغباتها، وحتى رغبتها الأخيرة بالانتقام بالحقيقة، الحقيقة وحدها، ولكنها كانت قاسية بما يكفي.

هبت نسمة باردة أسقطت عشرات من الأوراق فوقهما، تنهَّدت الغريبة:

- كانت تقول لي، يكفيها لو أتى مرة واحدة وأوضح لها لماذا استغلّ طيبتها معه هكذا، لماذا خان زوجته في فترة الخطوبة تلك، كيف لم يخجل؟ وكيف استطاع أن يضع قناعا بشعًا على وجهه وأمام من؟ أمامها هي؟! كيف كان يمارس رجولته عليها وحدها لأنها فقط وحدها، ماتت وهي تدعو عليه كل ليلة، كل ليلة يا مريم

وتبكي، تبكي لأنه حرمها حتى من أن تفهم كيف يكون الإنسان ممثلًا وأنانيًّا إلى هذا الحد، هو الذي تقرّب منها وبدأ كل شيء ثم تركها لمحيط من الأسئلة والبرد والغربة، أنا حزينة لأجلها ولا أزال... حزينة لأنها كادت تُصاب بالجنون، ولكنها فضَّلت الموت..

كان الأمر غريبًا وموجعًا بالنسبة مريم، موجعة تلك النهايات المفتوحة وتلك الأسئلة التي تصوغها قسوة الناس، تطحن القلب وتحطمه، مريم أيضًا فكرت أن تنهي حياتها عدة مرات، ولكنها تراجعت دومًا لأسبابها العقائدية، لكنها على كل حال خبرت ذلك الشعور الذي قد يدفع الإنسان للهاوية دون أي رغبة في البقاء والتمتع بربيعٍ كهذا وسماء كتلك.

أصاب مريم بعض الألم العميق من تلك القصص لكن بقي أمرٌ ما غيرَ مفهومٍ لمريم، كيف يختار الناس الرحيل هكذا، ألم تكن هناك خياراتٌ أخرى على الأقل؟ ألم يكن جزء من العدل الذي تؤمن به وتؤمن به الغريبة أن تنتصر تلك القلوب المظلومة في الحياة أيضًا؟

عبّرت عن شكوكها تلك للغريبة قائلة:

- لكن ألا يبدو في الأمر مبالغة؟ إنه بكل بساطة هو الشخص الخائن والنذل، هو من خان زوجته وتلاعب بصديقتك،

لكن لماذا هي التي انسحبت، تقولين إنها لم تكن تؤمن بعدل ما جرى، ولكن لو صبرت ربما لتغيّر شيء ما لأجلها.

قاطعتها الغريبة:

- لا يا مريم، الأمر أكبر مما تعتقدين، بالنسبة لها ولتربيتها كان أي انتهاك للجسد قد يعرّضها للقتل من أهلها والرفض من مجتمعها، وحتى اللوم ممن يعرفونها، كانت تخجل من نفسها أنها ضعفت، ثم إنك لا تفهمين أمرًا مهمًّا وهو أننا لا نستطيع الصبر بنفس الدرجة، هي لم تكن قادرة على الذهاب أبعد، لكنها كانت تدرك أن العدل سيأخذ مجراه، ومع ذلك لم تكن لديها القدرة ولا حتى الرغبة في البقاء لرؤية ذلك، كما أن الغربة والوحدة وحشان كبيران.

قد يفقد الإنسان كثيرًا من ركائزه إذا بقي وحيدًا، فالوحدة تسبب الهلاوس والتخيلات التي في كثير من الأحيان لا نستطيع كبحها، في السجون الانفرادية تتحطم نفسية الإنسان بنفس الطريقة، يولد خراب عميق في الروح ويصير من الصعب التعرف حتى على أنفسنا، لقد حدث مع هاجر نفس الشيء، كل إنسانٍ يأخذ نصيبه في نهاية الأمر.

سادت لحظات صمت ثقيلة، تبعها صوت مريم المبحوح.

- إذا كان اسمها هاجر.. أحب هذا الاسم كثيرًا..

علا صوت عصفور مر سريعًا بين الأشجار فوقهما، شعرت مريم بالسكينة فجأة، بدا كما لو أنها تعرف تلك الصديقة المجهولة، كما لو أنها ماتت بدلًا منها، اعتمل الفضول في قلبها لتسأل الغريبة نفسها عن حياتها، من تكون تلك المرأة التي تروي قصص نساء أخريات، ماذا قد تكون قصتها هي.

وكأن الغريبة قد سمعت تساؤل مريم، ابتسمت وهي تجيبها بصوتٍ بدا لأول مرة منذ بداية الحوار حنونًا ودافئًا:

- أعلم ما تفكرين به، لا تشغلي عقلك بي، ربما حياتي ليست مهمة كما تتخيلين.

شعرت مريم بالثقل بعد أن أدركت نهايات تلك القصص الحقيقية، كانت تودّ لو تسأل الغريبة لماذا بدأت تلك الجلسة بعدم الوضوح.

وضعت خصلة طارت من شعرها خلف أذنها ثم قالت وهي تحدّق ناحية المدى:

- لكن لماذا لم تخبريني منذ البداية قسوة تلك القصص؟ وأنك تعرفين الأبطال جيدًا؟ لماذا لم تبدئي بالسرد دون أسئلتك لي عن العدل والإيمان؟

أخذت المرأة الغريبة نفسًا عميقًا، ارتسم شبح ابتسامة باهتة على شفتيها ثم أجابت:

- لأن ذلك لا يهم، أردت أن أسمع من شخص غريب لا يعرف تفاصيل القصتين ولا يعرف شيئًا عن أبطالها، أردت أن أختبر إيمانك بعدل ما سيأتي وبالتالي إيماني، أنا لا أعرف عنك شيئًا غير ما أخبرتني به، وأنت لا تعرفين عني سوى شكلي ووجودي الآن أمامك، وذلك سيصير بالضرورة ذكرى، ولكن إن كنت قد أخبرتك منذ البداية أن تلك القصص قد حدثت حقًّا مع صديقاتي كان ليكون تفاعلك معها مختلفًا، فنحن ننحاز لما هو ماديّ كما ننحاز للقصص التي تربطنا بأبطالها صلة ما، ولكن ليس تصديقك للقصص ما كنت أبحث عنه وإنما إيمانك بقيمة تلك القصص، بالعبرة، وفي قصص لميس وهاجر كان العدل الإلهي هو جوهر كل شيء. لميس بالمناسبة هو اسم صديقتي التي استغلها ذلك الدجال الصوفيّ

ركزّت مريم نظرها ناحية الجبل، وهناك على القمة كان يلتمع الصليب الضخم تحت أشعة الشمس. سألت بصوت خافض:

- لكن لماذا قررتا الرحيل؟ لا أفهم!

سرحت الغريبة بعيدًا وأغلقت عينيها الواسعتين وتابعت:

- لقد كان صعبًا العيش بتلك المشاعر اللاتي عشن بها، لقد كانتا تنتميان لمدينة بهية وبديعة، ولكن أهلها قد يظلمون لو عرفوا، مدينة لأهلها أحكامهم القاسية والخاصة بهم، إنها مدينتك أنتِ أيضًا يا مريم.

هتفت مريم باستغراب:

- أيضًا من غزة؟ أما زالت تلك مصادفة أنك بحثتِ عني؟

قالت الغريبة وقد التمعت عيناها ببعض الدمع:

- صدقيني محض صدفة، لقد شعرت بحدسٍ غريب ناحيتك وتبعته، وفور أن سألتك عن مدينتك تأكدت أنك ستحتاجين لتلك القصص، أو بمعنًى أدق تلك القصص بحاجتكِ أنتِ، ربما لتكتبي عنها كما أخبرتكِ، ربما لتذكري نساء مدينتك، لا أعرف، ولكني لم أخطط لذلك أبدًا..

ساد صمت بينهما لبضع دقائق، واستعادت مريم هدوءها وهي تطرح السؤال مجددًا على الغريبة:

- لكن لم يكن أحد يعرف قصتهما كما فهمت منك، فلماذا خافا من المجتمع والآخرين؟
- لكنهما كانتا تعرفان، لقد عاشتا بالخوف من أن يعرف أحد، ذلك الخوف كان كبيرًا وموجعًا، أنا لا أدافع عما فعلتاه، أكره الموت، وأكره أن نختاره، ولكن هناك قصص لا نستطيع تغييرها يا مريم، لأننا لم نكن أبطالها.

ما لم تكن تعرفه مريم أنه في تلك القرية حيث كانت الغريبة تتحدث إليها في عصر يوم ربيعيّ، وحيث عملت هي لسنوات في المشفى، هناك التقت هاجر بالشاب الثلاثينيّ الذي تلاعب بها. في اللحظات اللاتي كانت تبتسم له كان هو يفكر كيف يحرق تلك الابتسامة عن ذلك الوجه، الحياة قد تكون أحيانًا قاسية كخريفٍ معلق لا ينتمي لدوران الفصول، ولكن حزن مستمر. في تلك القرية سكن هذا الشخص مع زوجته في ذلك البيت الأبيض المقابل لسفح الجبل، ذلك البيت حيث وقفت الغريبة بعد سنين على رحيل هاجر، وقبل أشهر عندما شاهدتها مريم تبكي وهي تبحث عن ظلال سكانه الذين كانوا قد رحلوا منذ زمن.

من سفح ذلك الجبل صعدت هاجر مراتٍ حتى كانت تصل القمة وتتنفس الصعداء، ومن حولها تبدو القرية كبقعة صغيرة مسالمة دون أن يبدو عليها أنها قد تكون مسرحًا لشيء قبيحٍ كذلك الذي عاشته، هناك حيث لا يعيش سوى كبار السن والمرضى، حدثت تلك القصة لهاجر التي أبقتها وحدها في مواجهة غدر مؤلم وخوف كبير.

هناك مقابل الشمس التي تغرب بسلام كل يوم صعدت هاجر الجبل للمرة الأخيرة وهي ترتدي معطفها الأبيض، وهي تدعو الله في كل خطوة. عندما هبطت من ذلك الجبل للمرة الأخيرة عادت لغرفتها، وحينها عرفت أنها لن تستطيع أن تحيا يومًا آخرَ لترى الشمس مجددًا.

أما قصة المتديّن الدجال فقد حدثت في غزة، هناك حيث تكتظ المدينة بالمساجد ودور العبادة، لقد كانت الغريبة -التي دون أن تعرف مريم نفسها أيضًا بنتُ تلك المدينة- هي نفسها شابة صغيرة عندما سمعت طلقة المسدس من بيت الجيران، صوت الطلقة لا يزال عاليًا ومرعبًا في ذهنها. لم ترد أن تروي لمريم تفاصيل الموت تلك، بدت لها بعد رحيلهما ثانوية وليست ذات أهمية.

كانت مريم متعبة ولا تحب سماع قصص الانتحار ولا النهايات الحزينة، هي تؤمن أن الحياة أعدل وأجمل مهما كان، لماذا استسلمتا في النهاية؟ لكنها تتفهم ضغوط العالم أحيانًا وضغوط الروح. شعرت

بحاجة ملحة للذهاب إلى البيت والاستلقاء هناك، سيكون عليها التفكير بكثيرٍ من الأفكار عقب ذلك الحوار الثقيل مع الغريبة.

عرضت على الغريبة قائلة:

- ما رأيك أن تأتي إلى بيتي؟ إنه في الجوار. أستطيع أن أعد لك كوبًا من الشاي بدلًا من الجلوس هنا.

لكن الغريبة اعتذرت:

- شكرًا، لكن الوقت تأخر، كما أني في عجالة من أمري هذا المساء، عليّ أن أوضّب لرحيلي الذي أستعد له منذ أسابيع.

تذكرت مريم لوهلة وسط الحديث وجه صديقتها ريتا التي عادت قبل عام وهي تحلم بحياة جديدة هناك، لم تتواصل معها كثيرًا منذ أن عادت فلا تزال مريم تشعر بالخيبة، ولكن وسط ذلك الزمن المبتور والقصص التي انهالت على مسمعها، فجأة تذكرت ريتا، وجاءتها ذكرى هروبها من وطنها إلى الغربة ثم عودتها إلى البيت أخيرًا.

قطع حبل أفكارها صوت الغريبة وهي تذكرها بالقصة الأخيرة:

- هل أنت مستعدة لسماع آخر القصص.. بعدها لن تري وجهي أبدًا، سيفرّقنا الزمن يا مريم. بعد سنوات ستذكرين هذا

اللقاء وتكتبين قصة سيقرأها كثيرٌ من الناس، حينها فقط سيرتاح قلبي بأن قصص صديقاتي لم تذهب سدًى.

تسمّرها من حين لآخر ثقة الغريبة، تجعلها تتساءل حقًّا إن كانت على اتصال بعالم ما وراء العالم الفيزيائي. تتحدث بوضوحٍ جليّ عن المستقبل، وهذا الوضوح ذاته ما يثير إعجابها وثقتها.

قبل أن تشرع الغريبة بقصتها الثالثة، سألتها مريم:

- اسمحي لي أن أسألكِ أمرًا ما، لماذا قلتِ عن نفسكِ ذئبة؟ لماذا ينتابني الإحساس أنك تعرفين أمورًا لا أعرفها، ترين أشياءَ لا أراها، هل لديك حقًّا قدرة على التنبؤ.

ضحكت الغريبة بصوتٍ صادح حتى انحنى النصف العلوي من جسدها، أسندته وهي تضغط بكلتا يديها على ركبتيها:

- بالطبع لا، أنا لا أعلم شيئًا، ولكن في داخل كل امرأة حدسٌ ما، كل ما أفعله هو أني أستمع جيدًا للرسائل التي قد تكون ملقاة دون أن يشعر بها أحد، أحاول ربط الأمور، أن أنظر جيدًا في أعين الناس، الأعين تفضح أكثر بكثير مما نتخيل، لقد شبهت نفسي بالذئبة لأن بداخلي غضبًا كبيرًا، أحيانًا أتمنى حقًّا لو كنت ذئبة أقف على قمة أحد الجبال وأصدر ذلك العواء الحزين الممتد

حتى آخر نجمة في السماء، ربما أنعم وقتها ببعض الراحة، إذ إن القهر بداخلي فوق أي وصف. الذئب متصل بالقمر والليل، أنا كذلك، أحاور الله كثيرًا، ولكني أفعل ذلك أكثر في الليل، وإذا كان القمر باديًا في السماء فإن نظري يتوجه سريعًا إليه، لا أحني رأسي مجددًا إلا وقد حاورت ربي وصارحته بكل شيء وبكيت.. آه! كم بكيت!

زمن من ضباب 2021

الشمس تدلف من خلال الستار الأبيض، تستلقي على الأثاث وتُشعل في الزوايا الدفء والرغبات في الجسد المنسيّ من رحم الزمن، جسد ريتا الممدد، شعرها الأبيض يلمع تحت وجهها الفتيّ، عيونها الغائرة مثل بحيرتين من حزن، كان اليوم استثنائيًّا بالنسبة لها، بجانبها حقيبة سفر كبيرة، المنزل صار خاويًا، تضع كتبها الدراسية في كرتونة في الزاوية، تلسع حرارة الشمس خدها، ومع ذلك لا تبدي في المقابل أي حركة، كانت في انتظار سيارة التاكسي التي ستأخذها إلى المطار، لم تهاتف مريم منذ حوارهما الأخير في منزلها، يسيل الدم من جرح صغير في إبهامها الأيمن أُصيبت به وهي تقطع الشريط اللاصق لإغلاق كل شيء أمس قبل أن تزيحه جانبًا.

يدق جرس المنزل، تنهض ريتا من غفوتها البسيطة وتجرّ حقيبتها للنزول إلى الشارع، انزلقت دمعة حارة على خدّها، مرّت كشريطٍ سريع ذكريات دراستها في هذه البلاد، مرّت أيامها الأولى في الغربة أمام ناظريها، تنهَّدت وهي تحدّث نفسها كم أنها انتظرت هذه اللحظة طويلًا. حدقت لمرة أخيرة ناحية الجدران وقد امتزجت برائحة أحلامها وكذلك رائحة وحدتها وحزنها في الليالي الطويلة.

عندما لمست يدها قفل الباب تذكرت لمسة يديه فوق يدها، ذراعه وهي تشمل جسدها الهزيل، قوته وهو يضمه بقوة إليه، قبلته الناعمة على عنقها، بعض الذكريات تُعاد كما لو أنها تحدث الآن، بالكاد نستطيع الشعور باللمسات وشم ذات الرائحة، كانت ريتا تقاوم كي لا تستعيدها، ومع ذلك تباغتها اللحظات كأشواكٍ على الطريق، لطالما باغتتها حتى خنقتها ولم تعد تستطيع تحمّل الغربة وظلالها الثقيلة، لكن أن تأتيها الذكرى الآن عند اللحظة الأخيرة وهي تدير قفل الباب، فكان ذلك مباغتًا وجارحًا للغاية.##

.....

كان ذلك في اليوم الذي تستعد فيه لإطفاء شموع عيد ميلادها التاسع والعشرين، لا هدايا ولا شموع بانتظارها على الطاولة، في أحشائها ينمو شوق جارف لأن تكون معه مجددًا، هو الذي عبر محيطات من الوقت كي يجتمعا مجددًا. I have crossed oceans of time to find you، إنه ذلك اليوم الذي لن تنساه طيلة حياتها، لقد كانت تلك المرة الوحيدة التي يعدها فيها بأمر ولا يستطيع تحقيقه.

"لا تخافي يا ريتا.. الرجال ليسوا كلهم واحدًا، ليس الجميع مثل زوج أمك".. اعتادت أن تطمئن نفسها طيلة سنين صداقتهما.

في بداية الخوف كان يخمد قلقها بعباراته الحنونة، يضمها إليه، يغرس قُبُلًا بين عينيها، لم ترَ فيه يومًا الشخص العاديَّ الذي قد يأتي هكذا مصادفة لنكمل معه طريق الحياة، كان بالنسبة لها ذلك العوض الكونيُّ الذي تخبر عنه الروايات، ذلك الأمان المطلق الذي يجده الغارقون قرب الشاطئ، وكان دفء قلبه هو عالمها الذي نسف عوالمها السابقة كلها.

يرن جرس الهاتف، ريتا في المطبخ، شعرها مجدول وملقًى فوق كتفها الأيمن، نظرت سريعًا إلى ساعة الحائط التي أشارت إلى الثالثة عصرًا وقتها، أحسّت بانقباضة في القلب، عندما رفعت السماعة أتاها صوت الموظفة في المستشفى تخبرها بأن تحضر فورًا لأن زوجها تعرض لحادث سير وهو في حالة حرجة.

لا يزال ثوبها المثقوب الذي كانت تخطط لرتقه في ذلك المساء مطويًّا في خزانتها، الكعك المحلَّى بقي لأيام فوق الطاولة إلى أن تحجّر تمامًا، رائحة البخور الذي أشعلته حينها بقي عابقًا لسنين في الستائر والأقمشة.

بعد أيام طويلة وحزينة تجرأت ريتا لتقرأ رسالته الأخيرة، لقد كان ذلك بعدما أتمت التاسعة والعشرين، هنا في هذا المنزل وبين تلك

الجدران وفي ظل هذا البرد القارص الذي استمر يكوي قلبها منذ غيابه:

"إلى ريتا..

عندما التقينا قبل سنوات هنا رأيتُ فيك المرأة الأكثر حزنًا في حياتي، فتاة هربت من وجهها وجسدها إلى فم الغرب المتوحش، وكنتِ لي وما زلتِ كل سند ومعنًى، أتذكرين عندما صعدنا معًا إحدى الجبال وعقلنا في منتصفه، حينها قلتِ لي أنك نظرتِ إليّ وشعرتِ بالأمان وبأنني الشخص الذي لن يخذلك، لم أقل لك ربما بعد أن تلك اللحظات كانت من أجمل لحظات حياتي. عندما استندنا إلى صخرة وأخذنا نراقب سقوط المطر، كان الضباب أمام رؤيتي ينقشع. أتلمس حقيقة سلام ووداعة الكائن الواقف بجانبي، شعرت دون شك بثقتك تلك حينها، وعاهدت نفسي ألا أخذلها. أتمنى ألَّا أكون قد خذلتك يا ريتا أبدًا! ولا حتى في الأحلام.

أعلم أني كنت السبب في شفائك في يوم من الأيام، معًا تخطينا ذلك الجرح الصعب وسرنا سويًّا على شاطئ البحر، يعلو الموج فيه وفينا، تحتضن يداي يديك الدافئتين، نغنّي للمستقبل البعيد الذي أتى ذلك الصيف على جناحي نورس، ربما تبتسمين الآن وأنت تقرئين هذه الرسالة، إذ أبدو فيها شاعرًا أو أديبًا، لكنك تدركين جيدًا أنني

أقتبس كثيرًا من العبارات. اعلمي يا ريتا أنكِ أجمل النساء مهما قال لك آخرون عكس ذلك، وأنكِ الحب الأكبر في قلبي، لا أعلم متى يحين وقت قراءتك لهذه الرسالة، ولكن أتمنى أن تكوني كبيرة في العمر، ويكون لدينا كثيرٌ من الأبناء الصغار كي لا تشعري بالوحدة، ومن يدري، قد لا تقرئين هذه الرسالة أبدًا إذا متُّ قبلكِ. اصبري يا ريتا، فالحياة قصيرة، ولا بد أن نلتقي قريبًا، لا تثقي بأحد، لا سيّما هؤلاء الذين يحاولون تجفيف دموعك، لا تصدقيهم أبدًا، سيكونون أول من سيحطمون قلبك الحزين. إذا كنت وحيدة فوصيتي لك ألا تبقي في الغربة، عودي يا ريتا. عودي ولا تخافي من مطر البلاد ولا عواصفها، هناك لا بد أن تجدي البحر وبعض المخلصين".

في أحد أيام ديسمبر سارا معًا على طول الشاطئ حتى امتزج الملح بالجلد، جعلت الرطوبة شعرها ملتصقًا ببعضه وبشرتها دبقة بعض الشيء، لم يتعبا، تحدثا وقتها عن أبنائهما المستقبليين، عن الزمن عندما يكبران معًا في نفس المكان، سيقومان بقراءة نفس الكتب معًا، هي تقرأ في أوقات ما، وهو يستمع، وفي أوقات أخرى تنعكس الأدوار، اختارا أسماء لبناتهما وأبنائهما الذين سيأتون. في ذلك النهار قررا أن يكتب كلٌّ منهما رسالة، كل منهما يوجه فيها وصيته الأخيرة للآخر، اتفقا أنه عندما يموت أحدهما يفتح الآخر الرسالة ويقرأها.

- أنـا لا أحـب الـدراما يـا ريتـا، أنـا محاسـب ولا أفهـم إلا الحسابات والأرقام.

ثم أصدر ضحكته العالية، لكن ريتا ألجَّت.

- أنت تقول ذلك الآن، ولكن عندما تكون وحدك ستتمنى لو كنت قد تركتُ لك شيئًا... اعترافًا أو ذكرى أو حتى عتابًا.

في تلك اللحظات أراد أن يحتضن ريتا أمام الناس، على ذلك الشاطئ الذي يتسع لآلاف الأمواج ويضيق على موجة القلب الخجلى تلك، اكتفى بأن شد قبضته على يدها:

- ريتا، سأفعل ذلك لأجلك، أتمنى أن تقرئي أنتِ رسالتي، لا العكس، أنا لا أستطيع تصور هذا الألم.

صار البيت خاويًا وهي في التاسعة والعشرين من عمرها ولم ينجبا بعد أبناءً، لم تستطع أن ترحل فورًا كما طلب منها، فقد كانت تؤنسها فكرة وجود صديقتها مريم بقربها، لكن الوقت كان أثقل لاحقًا، تخرج لتعمل ساعات طويلة وعندما تعود للمنزل وحدها آخر النهار لا تجد سوى أصداء الذكريات ووحدة تضغط على روحها وتقتلها. قرأت رسالته لها مئات المرات قبل أن تحزم أمتعتها أخيرًا وتغادر.

زمن من غدر 2022

أخذت مريم تمشي جيئة وإيابًا وهي تستعد للاستماع للقصة الأخيرة من قصص الغريبة، اليوم كان عطلة بعد مناوبتها الليلية أمس، لم يعد التعب من عمل أمس أمرًا جوهريًّا بالنسبة لها، للحظات طويلة استحضرت تلك النساء اللاتي اخترن نهاية حياتهن بسبب ظلم أحدهم لهم، تذكرت ما كانت تردده جدتها كثيرًا: "المرأة جناح ضعيف".. عندما كانت تسمع رجلًا يتحدث بصوت عالٍ مع زوجته أو أية امرأة أخرى تردد باستهجان: " يا حيف عالرجال! ما بيسترجلوا غير على النسوان، يروحوا يسترجلوا على الاحتلال".

سرحت مريم بقلبها المجروح، فكرت بمحمد، بباقة الورود التي جلبها لها عندما التقيا هنا، لم تسامحه مريم بعد ولن تفعل، من بين الأشياء القليلة التي كانت على يقين منها هو ذلك الجرح الذي لن ينتهي سوى بانتقام ما، محمد الذي كانت تصلّي وتدعو له أن يوفقه الله في امتحاناته، تتذكر من قصة حبهما الكثير، ولكن هناك يومان كانا مَفْصِلِيَّين، اليوم الذي ذهب فيه إلى الحدود ليموت، واليوم الذي زارها فيه وقال لها إنه لم يعد قادرًا على الزواج منها لأنه قد ارتبط بسبب أوراق إقامته هنا بامرأة أجنبية.

- هيه! بماذا تفكرين؟

أيقظها صوت الغريبة من تأملاتها، فانتبهت مريم إلى أنها قد ذهبت بعيدًا في تفكيرها، ضغطت بقبضة يدها بقوة على المقعد الخشبي، قامت بنزع الجلد الميت عن إبهامها كما تفعل عندما تكون في ضغط نفسي أو قلق، لقد آذتها فكرة التفكير بمحمد رغم ابتعاده وزواجه ونسيانه الجارح لكل ما كان بينهما.

- أنا هنا، أسمعكِ.

هذه المرة وقفت الغريبة قبالة مريم، الوجهان متقابلان، الحزن في العينين يبدو متوازيًا، أمسكت الغريبة يد مريم وشدت قبضتها قليلًا، قالت لها بحدة كمن يلقي وصية أخيرة:

- أريدك أن تكتبي عن كل ذلك. تذكري أن لميس وهاجر هم بنات مدينتك أيضًا، تذكري أني أنا أيضًا بنت تلك البلاد التي لا يسمع عنها أحدٌ شيئًا سوى أصوات الحروب والدمار، تذكري صوت الإنسان، تذكري صوت المرأة هناك يا مريم، تذكرينا نحن الذين نسانا الزمن وخذلنا.

ارتعش قلب مريم وهي تحاول تخيل وجوه لميس وهاجر والغريبة هناك في شوارع مدينتها غزة.

تابعت الغريبة:

- ربما ليس هناك دم وصراخ في الحكايات، ولكن هناك ما يهم كثيرًا يا مريم، لو عرفتِ صديقاتي لعرفتِ كيف كان الأذى كبيرًا على قلوبهن، لعرفتِ لماذا أنا حزينة دومًا، لكن هذا لا يمنع أن لي قصتي، تلك القصة التي لن أرويها لأني ما زلت أحياها، عندما نفترق الآن أريدك أن تدعي لي وتدعي لنفسك، لقد كان الله حاضرًا في هذه اللحظات بيننا. لقد شعرت به.. عديني بألّا تنسي تلك القصص؟ حتى لو نسيتِني ونسيتِ قصتي، لا تنسي هاجر وليس.

تسارعت نبضات قلب مريم وهي تستمع للغريبة وقد أوشكت القصة أن تصل لنهايتها، أوشكت تلك المصادفة أن تنتهي وتصير ذكرى. تمتمت مريم:

- أعدك أن أكتب عن هذه القصص، ولكن أكملي أرجوكِ!

- في يوم شتائي بارد كنت أجلس مع أهلي في غرفة الجلوس، نصنع دفئًا خاصًّا بنا رغم صعوبة الحال، لم نكن نملك مالًا كافيًا لشراء الجاز أو المدفئات الكهربائية، ولكن كنا نمتلك أغطية كانت تكفي لنا أحيانًا، في ذلك اليوم كنا نتناول الكستناء المشوية، كان يومَ خميس عاديًّا بسيطًا وجميلًا، لا نقوم فيه بأداء واجباتنا

المنزلية، ويكون مسموحًا لنا مشاهدة التلفاز طيلة الليل. حينها سمعنا صراخًا يأتي من البيت المجاور، كان الرجل يضرب زوجته، أو هذا ما فهمناه، كنا نسمع المسبات يصدرها الرجل بصوته العالي ممتزجة بتوسلات زوجته أن يتوقف، لم نسمعهما من قبل يتشاجران، بدا الأمر مفاجئًا، بدأ كل شيء فجأة، ثم صمت فجأة عم السكون، حتى لقد تساءلنا إن كان ذلك الصراخ محض توهُّم. تابعنا يوم الخميس ذاك، ولكن بدفء أقل. لا أعلم -حتى اليوم- ماذا كان سبب الضرب والصراخ، ولكن ارتبط ذلك اليوم بذكرى اليوم اللاحق حيث بدأت الحرب، وعند ذلك الزمن توقفت حياتي كلها. أحاول أن أنسى ما جرى، أن أركز على تفاصيل الأيام البسيطة قبل ذلك بقليل، لكني لا أنجو، لقد شغلتني قصص صديقاتي الحزينة تلك أيضًا وقتًا طويلًا ولا تزال، أحاول أن أنسى بتلك القصص قصتي أنا، القصة التي ليس فيها شيء مميز، قصة الموت والدمار وضياع أفراد عائلتي تحت الركام، راحوا كلهم، وأنا خرجت في بعثة دراسة هاربة من شبح الموت الذي لا يزال يرافقني يا مريم.

وانفجرت الغريبة بالبكاء. خرج صوتها كأنه بكاء مجموعة أفراد، لم تستطع مريم أن تفهم كيف تخرج هذه الأصوات من حنجرة امرأة وحيدة، تذكرت والدتها، لم تستطع أن تكبح دموعًا

انسالتْ على وجنتيها، اختلط وجه أمها برائحة الجبنة المقلية، وصوت الديك وأذان الفجر، أصوات خطوات المقاومين أسفل منزلهم، طعم الخبز المر بالغربة، بكاء الغريبة الآن، كل شيء حتى شعرت مريم بصداع يجتاح رأسها، أغمضت عينيها وانتظرت.. انتظرت طويلًا حتى توقفت الغريبة عن البكاء.

زمن من حلم 2020

الآن ستبرعم الورود الصغيرة على ذراعي مريم المكشوفتين للشمس، الفستان الأزرق الطويل يجعلها تبدو كحورية بحر في بلد لا بحر فيها، لا تزال بعض البثور على وجهها واضحة، لم ترد أن تغطي أي شيء، فليكن كل شيء واضحًا وحقيقيًّا في هذا اليوم، هناك في البعيد تتلألأ أشعة الشمس المنعكسة على ماء البحيرة، رأت بقربها جيرانها مارتن وتانيا اللذين تحبهما بصدق، في ذلك اليوم بدوا كعاشقين صغيرين، مارتن تصيب أشعة علاج السرطان خلاياه بالضعف كل يوم، ولكن تانيا تبقيه قريبًا من الحياة. خرجت مبكرًا واشترت قالب حلوى من المخبز المجاور، أخبرها أنه سيأتي إلى محطة القطار القريبة، والتي تبعد لسوء الحظ عن قريتها حوالي أربعين دقيقة على الدراجة الهوائية. لم تكن بحاجة دقائق لاتخاذ القرار بأنها ستذهب على دراجتها لاستقباله، محمد الذي عبر بلادًا عديدة كي يصل إليها كي يتابعا ما تعاهدا عليه عندما كانا في مدينتهم الصغيرة.

الطريق طويلة، على اليمين تمتد حقول قمح شاسعة ملأتها السنابل، شمس نهاية الصيف وبداية الخريف تتوسط السماء، مريم تدوس بكل قوتها فوق دواسات الدراجة الهوائية وتمضي، تذكرت مشهد الطبيبة في فيلم City of angels الذي أرسله لها محمد في

مقطع فيديو، فيه تنطلق البطلة على دراجتها الهوائية، تفرد يديها كمن يحتضن الهواء، تغلق عينيها وتقف تاركة الدراجة تتابع طريقها وحدها. في تلك اللحظات سكن فرح خالص قلب مريم، نسيت معه الكثير من الجروح، حتى أمها عادت إلى الحياة وتخيلتها تجلس على أحد المقاعد الخشبية في الطريق. والدها كان خارج معرض الذكريات. للحظة خاطفة من الزمن تذكرت كم تفتقد أخاها وديعًا. وللحظة أخرى خاطفة تصورت نفسها تعدو نحو سعادة ما تنتظرها عند محطة القطار تلك. لم يكن هناك ما هو أجمل من وجه محمد الصادق، الوجه الذي رأته لأول مرة قبل سنين في وطنها وهو يدخن سيجارته ويتجاهل والدها بطيش شاب نزق. ذلك الوجه الذي ارتبطت به مدى الحياة، أو على الأقل حتى تلك اللحظة.

تذكرت مريم كيف ذهب محمد عام 2015 عميقًا ناحية الثغور على حدود المدينة كي يعلن لها عن حبّه، كان يومًا ربيعيًّا بسيطًا، هناك أطفال الحي الذين يلعبون في الشارع، محمد الذي للمرة الثانية لم يحصل على معدّل جيد في الثانوية العامة أعلن في نوبة غضب لمريم أنه سيطلب يدها من والدها.

- لقد فشلت في الدراسة يا مريم، سأمارس الآن طريقين في الحياة، طريق الحب وطريق الجهاد، وعليك أن تكوني معي منذ الآن.

كانت مريم قد بدأت بتقديم معادلات الفيزا كي تسافر العام المقبل، حاولت أن تخبره أن ذلك الجنون لن يكفل لهما أي مستقبل، فلا بد أن تمتلك بعد كل تلك الصراعات بعض الأمان.

- أنت كذلك يا محمد، تحتاج إلى الهدوء والأمان، أعطِ نفسك مساحة كبيرة لتفكر في الأمر. لكن أبي سيرفض، يعتقد أني ما أزال صغيرة، عليَّ أن أترك البيت، إنه ينتظر هذه اللحظة منذ زواجه قبل عام وأنا لا أريد أن أبقى أكثر. سنلتقي في الغربة كما اتفقنا.
- لكني فشلت..!
- تستطيع أن تنجح المرة القادمة.

كان محمد جامحًا وحالمًا، وقال بوضوح بأنه سيذهب ليموت على الحدود إذا لم تتزوجه الآن.

مريم الآن تقود الدراجة بين الحقول، ولكن انقباضة قلبها حين أغلق محمد الهاتف في وجهها منذ سنين بعيدة لا زالت تدوّي في روحها كأنها صرخة الأبد.

لم تنم ليلتها، لم تنم وهي تدعو لمحمد بالنجاة وبحفظ الله.

وفي الصباح عندما عاد محمد احتضنته بدموعها وقلبها، لكنه كان قد هدأ دون أن يتحدث معها، شاهدته من شرفة المنزل وهو يعود فجرًا حاملًا حقيبته الثقيلة. بكت وسجدت حمدًا لله أنها لم تفقد محمدًا كما فقدت والدتها في ذلك اليوم.

وبعد أسبوع بعث لها برسالة قصيرة:

يبدو أني سألتزم بخطتنا القديمة يا مريم.

رائحة التراب المحروث تشعل رغبات دفينة في قلب مريم، لا تزال إلى اليوم تجهل ماذا حدث مع محمد يومها وكيف عاد إلى رشده خلال ليلة واحدة.

الجبال الممتدة عاليًا على يمينها حيث بُني طريق سريع للسيارات في أعلى قممها يجعل من رحلة مريم تلك دربًا مزدحمًا، كأنها ولأول مرة لا تسافر وحدها، شعرت بأن محمدًا يرافقها منذ الآن، فقد غمرتها الذكريات بحضوره وبالتالي بالأنس الرحيم.

سألت نفسها الآن كيف استطاعت توديع محمد عندما سافرت في التاسعة عشرة من عمرها، تحديدًا بعد عام من ثورة غضب محمد تلك، كيف تحمّلت فكرة البعد والمسافات، لم يخطر ببالها عندما

ركبت السيارة ورحلت أن الشوق سيتفجّر بركانًا بداخلها ولن يخمد هذا الشوق إلا عندما تلقاه عند المحطة المجاورة لقريتها بعد أعوام.

.....

مرت كنسمة خجولة قبالة باب منزلهم، كان أبوها يصطحبها برفقة زوجته الجديدة حتى مفترق الشارع القريب، ومن بعدها حتى المعبر على مسافة ساعة في السيارة، كانت سيارة الأجرة تقف بانتظارهم، في الطريق القصير من منزل مريم إلى مفترق شارع النصر يسكن محمد.

في الطريق للسيارة كان محمد قد وقف كما اتفقت معه قبل ذلك بيومٍ على باب منزلهم، لم يستطع أن يعطي مريم الهدية الصغيرة التي أعدها لها، رأته يقف بنظرة حزينة يودعها بخجل، التقت أعينهما للحظات من الثانية، تسارعت فيها دقات قلبيهما، سالت دمعة عزيزة من عيني محمد قبل أن يعاود الدخول لمنزلهم وإغلاق الباب. لم تكن مريم قادرة على الوقوف وقرع الباب بيدها ومناداته كما أرادت أن تفعل بشدة حينها. اكتفت بأن غسلت باب منزلهم بنظراتها وتابعت.

كان ذلك عام 2016، السنة التي أعاد فيها محمد امتحانات الثانوية العامة للمرة الثالثة قبل أن ينجح ويتخطّى تلك المرحلة.

حاولت ألا تحزن، كانت الغربة هي الحل الأمثل بعد حصولها على منحة دراسية لدراسة البكالوريوس لنسيان العديد من الفصول، ولتأمين حياة أفضل لها ولأخيها الذي سيكون البيت موحشًا عليه جدًّا مع أبيها وزوجته.

"هان عليكِ تتركين أخاكِ يا مريم؟"

جملة أبيها التي بقيت سمًّا ينغّص عليها أيامها.

"تعلم جيدًا أني لن أترك وديعًا أبدًا، بعد سنوات سأرسل له دعوة ليأتي".

لا تجادل مريم كثيرًا، كيف يقارن بين تركها لوديع بتركه لهم، بطبيعة الحال ليست هي من تزوجت وتمتعت في حياتها بعد مرور عامين فقط على رحيل والدتها، أمام الناس هو قد مارس حقه الطبيعي في أن يتزوج، ولكن أمام نفسه وأمامهما يعلم جيدًا أي حزن قد سببه لهما، لقد حلّ الجفاف في البيت الدافئ، وكان صعبًا عليها أن تتقبل إنسانة أخرى محل والدتها وكذلك وديع.

.....

الهواء بارد على عنق مريم، السماء أشد زرقة من فستانها، لا تحزن مريم على شيء، صارت تقلّب صفحات الذكريات كما تقلب كتابًا، تردد "الحمد لله". وتمضي قدمًا في الحياة، مثلها مثل كثيرين لا يملكون ترف الخيارات الكثيرة.

في اللحظة التي رأته فيها مريم يترجل من القطار استفاق في قلبها أملٌ كسرب طيور من السنونو تجتاح السماء وقت الغروب في يوم خريفي هادئ، طويل القامة، ونظره مرفوع إلى الأعلى، رأته كنخلاتِ البلاد السامقات في الأفق، بدا تائهًا يفتش عنها، ابتسم ولوّحت له بيدها. كل خطوة يقترب بها منها تعيد لمريم رائحة قديمة، السكاكر وهي تذوب في الفم صباح أيام العيد، رائحة الليل والتراب المبلل بخطوات العائدين من درب العمل، رائحة الرصاص المبرِيّ منذ زمن في حقيبة المدرسة، رائحة النار والقذائف في الحروب، ورائحة كفن أمها عندما ضمتها لآخر مرة. روائح سعادة وألم امتزجت معًا وترسبت في قلبِ مريم وهي تنتظر لحظة اقترابه الوشيكة منها، الأعين غصّت بالدموع الثرية.

"لا أعلم أين وضعني الله يا مريم، أشعر أني أشبه عمّي وأنه عليَّ أن أموت هنا مثله، أن أبقى وأنتظر قدرًا ما أو موتًا بطريقة لائقة، لماذا تختارين تلك البلاد؟ كل العالم سواء في نظري، ولكن إن كنتِ مصرّة فسأتبعك يومًا ما".

تعبر كلماته في خيالها كمواساة حتمية من القدر خلال غربتها، وإن كانت جملًا مبعثرة ومتأخرة. كان محمد يقترب ومريم تفكر أنه قد وفَّى بوعده لها على الأقل، وإن كان قد قطع اتصاله بها لسنوات، وإن كان قد تركها تحيا سِني غربتها الأولى وحدها في الظلام، على الرغم من الجروح التي كانت تود لو تشاركها إياه ولم تقدر، فهو قد عاد، هو الآن حقيقة هنا معها أخيرًا، وكل ما مضى لن يكون مهمًّا.

صارا متقابلين، وجهان لم يجتمعا على هذه المسافة حتى في الوطن، لم ترَ مريم تفاصيل وجهه إلا الآن، ذقنه المهذبة، عيناه واسعتان بلون عسلي باهت، شعره مصفف إلى الوراء، مد يده لها، كم من عوالم وأكوان كان قد مدّ لها في تلك المصافحة، لمست يدها يده للمرة الأولى، ولم يكن ذلك حلمًا.

كان على أحدهما أن يبادر بالحديث كي تنفلت الأيدي قليلًا، تولّى محمد زمام تلك المبادرة دون أن ينزل عينيه عن وجهها:

- أخيرًا يا مريم.. كيفك؟

أخفضت مريم نظرها وقد احمرت وجنتاها، حاولت أن تتبع آثار القطار أو أن تتجول بنظرها سريعًا بين المسافرين المتعبين كي تنفض الخجل عنها.

- الحمد لله يا محمد، الحمد لله على السلامة.

وعندما التقت عيناهما مجددًا ابتسمت مريم وهي تخبره وهي تبحث عن بعض التشتيت لقلبها ولأفكارها المتدافعة:

- سنتابع السير من هذا الطريق.

لم تستطع مريم أن تخفي فرحتها، من لحظة لأخرى تنم عن شفتيها ابتسامة تضحك معها عيناها، تدير ظهرها ناحية محمد كمن يتأكد من حضوره بقربها، تضغط أحيانًا على مقود الدراجة وهي تجرها بالقرب منها كي تفرّغ انفعالها، لم تكن تريد لمحمد أن يلاحظ ذلك، أخذت تبادله أطراف الحديث من حينٍ إلى آخر:

- هل كانت طريق سفرك صعبة؟

بدا محمد غائبًا بعض الشيء، يتأمل ممر الأشجار حيث يعبرون، يصيخ السمع لأصوات الطيور التي من الصعب تحديد مصدرها، كان هناك صوت خرير ماء يُسمع من حين لآخر وصوت مريم يأتيه دافئًا حنونًا كأنه يصدر من داخله هو لا هي، لأول مرة يغادر مدينته ويسافر بعيدًا، لولا مساعدة مريم لما تمكن ربما من السفر.

- شكرًا يا مريم. الطريق كانت صعبة كما تعرفين، لا مطار ولا ميناء في بلادنا، نعبر المعابر العديدة ونجتاز عدة دول لكي نصل أخيرًا إلى وجهتنا.
- أعلم ذلك جيدًا، الوضع لم يتغير كثيرًا عمّا كان عليه عندما غادرت.

ساد الصمت بينما تخترق أشعة الشمس شعر مريم الممتد كليل مدينتهما البعيدة بلا كهرباء تحت نجوم مرصّعة وقمر جميل.

أضافت مريم كمن تذكرت أمرًا فجأة:

- لقد استأجرت لك غرفة في سكن مشترك في القرية ريثما تستقر أمورك ونقوم بإجراءات الإقامة لك في المدينة.

تابعا طريقهما بفرحٍ غريب، لقد وجد كل منهما الآخر أخيرًا في منطقة لم تخطر على بالهما قط عندما كانا صغارًا في غزة، أخذت مريم تسأله عن سكان الحي وأخبار أصدقائها وجيرانها القدامى وهو يجيب بالتفصيل ويستفيض بالشرح، كان صوته عذبًا كالماء الذي يسيل قربهما. لوهلة ولحظة خاطفة شعرت مريم بهاجس غريب، حاولت تجاهله دون أن تنجح، ربما كان مبعثه القلق أو الخوف من فقد محمد من جديد. لقد كان ذلك الحدس المفاجئ يوشي لها أنّ ظل محمد الذي يسير بقربها الآن سيغادرها ذات يوم.

اتحدت يداهما للمرة الثانية عند باب سكن محمد الجديد، لم تكن مريم تعرف أن تلك ستكون المرة قبل الأخيرة.

- سنلتقي غدا مجددًا.

قالت له ثم أضافت:

- أتمنى أن ترتاح اليوم، لقد صنعت لك بعض الحلوى ووضعت لك في الثلاجة بعض الطعام، لا بد أنك جائع.

شكرها محمد وهو يضغط على يدها ويحدّق في عمق عينيها العسليتين، مما جعل مريم تتورّد خجلًا من جديد.

في صباح ذلك اليوم، جاء محمد ومعه باقة من الورود لمريم، عندما صافحته شدها إليه ولامس كتفها كتفه فانتفضت وابتعدت، لكن قلبها كان ينتفض كجناحَيْ عصفور، ولو أن للكون حدودًا فقد تخيّلت مريم سعادتها في ذلك اليوم بلا حد.

لم تندم مريم على كل ما فعلته لمحمد، ورغم أنه رحل بعد أسبوع ليتابع دراسته في مدينة أخرى لينقطع تواصلهما مجددًا، لم تلمه بدايةً، فهي تدرك دوامة الغربة والتجديد المفاجئ، لكنها لن تسامحه أبدًا عندما خطب أجنبية وتزوجها وتخلّى عنها، لن تسامح بروده عندما نقل لها الخبر، ولن تسامحه أبدًا أنه لم يطلب منها أن تغفر له إلى الآن.

"لقد تفتَّتُّ تمامًا وهوى قلبي كمن يسقط من الطابق المئة، ومع ذلك لم أمت، وكان عليَّ أن أحيا بكل تلك الجروح والخدوش والكسور طيلة عمري، أدعو عليه كل ليلة، كيف يتحول الشخص الذي أحببناه بكل صدق إلى الشخص الذي لا نتمنى له شرًّا، ولكننا نتمنى من الله عدلًا كافيًا شافيًا نراه فيه؟!"

"لو كان يريد الرحيل فقد كان عليه أن يخبرني منذ البداية، أن يخبرني السبب يا ريتا، أما أن يكذب ويدّعي ثم يكسر قلبي، فأي مدًى قد يتسع حينها لقلبي المكسور؟"

ستردد كلامها هذا بصيغٍ مختلفة كلما التقت صديقتها ريتا، وهي نفس الأسئلة التي تطرحها مريم على نفسها على الدوام.

لم تنسَ مريم جرح محمد، وسيصير الجرح أعمق عندما ستعلم عن طريق قريب له أنه ابتعد عنها عندما سافرت شكًّا فيها.

- ما الذي قاله لك؟
- ما يقوله المتشدقون من الشباب العرب والمسلمين في الغربة يا مريم. أنكِ فتاة وحيدة وربما تكونين قد أقمت علاقات أو ضللت الطريق، والآن تريدين الزواج منه.

جرى ذلك الحوار القصير الذي انتهى ببكاء مرير من مريم في إحدى المحطات، لقاء عابر بصديق مشترك، جلست على مقعد بجوار سكة المترو وانهارت في البكاء.

عمر صديق محمد يهزها من ذراعها خائفًا:

- هل أنت بخير؟؟

يصل المترو، يكون على عمر الصعود فيه، يحرك رأسه بين المترو ووجه مريم المصدوم، يحاول أن يقول شيئًا، أي شيء:

- لكن ليس كل الشباب واحدًا، أنا أيضًا قطعت علاقتي به عندما علمت كيف يفكر، تذكري يا مريم أن كل إناء ينضح بما فيه. حتى الذين نحبهم، اعتنِ بنفسك.. وداعًا.

اختفى عمر وغادر المترو، وبكت مريم مطولًا في المحطة قبل أن تكتشف الدم وهو يسيل من جرح محمد لها، ويملأ المحطة والشوارع والمدن وكل المدى الذي وصلت له مريم حينها بنظرها.

- كيف تغير محمد إلى هذا الحد، كيف تغيّر الإنسان الذي عمه شهيد وهو نفسه تغنّى وحلم بالشهادة، كيف سقط ذلك البطل الذي انتظرت عودته من حدود مدينته لأنه ارتكب

حماقـة، ولكـن شـجاعة بسـبب الحـب، وتحطّـم ليصـير كـأي إنسانٍ تافه تملؤه الظنون والوحوش ويفيض نكرانًا. كيف؟

سـيبقى سـؤال مـريم يتردد في قلبهـا دون إجابـة لسـنوات قاسـية وطويلة، ولن يصل إلى سمع محمد مطلقًا.

زمن من غدر 2022

بـدأت أضـواء الطرقـات تُنـار بينمـا تتوغـل العتَمـة شـيئًا فشـيئًا لتشمل مريم والغريبة، يحيط بهما الصمت، لا ترغب مريم بطرح مزيد من الأسـئلة، شـعرت بالتعب ورغبـة عاتيـة في العـودة للبيت لكي تفكر بكل ما قد قيل لها خلال هذا الحوار الأبديّ.

كانت الغريبـة قـد غرقـت في عـالم حـزين، أشـعة الشـمس تنعكس عن دموعها لتضيء تلك الدموع كقناديل، لم ترد مريم أن تطرح مزيدًا مـن الأسـئلة، لأول مـرة منـذ بدايـة الحـوار تشـعر أن للغريبـة عالمهـا الخـاص، سـحرها الحـزين الخـاص، منـذ اللحظـة التي شـاهدتها تعبر مسـاء يـومٍ بـارد بجـوار البيـت ثـم تعـود حزينـة وصـورتها محفـورة في الـذاكرة، الآن تعـرف مـريم جيـدًا كـم هي وحيـدة، تحديـدًا مـن تلـك الوحـدة وذلـك الألـم عرفـت كيـف تتحـد مـع آلام غيرهـا وتفهمهـا، بـل وتعيشـها وكأنها آلامها الخاصـة، لقـد اسـتطاعت مـريم أن تـرى في ظلال ذلـك الفقـد العظيم مشـاركةً عاليـة وإحساسًـا عاليًـا بغيرهـا، وذلـك مـا جعلها تحمل في قلبها جروح هاجر ولميس كما لو كانت جروحها هي.

مـرّت اللحظـات ثقيلـة، مـرّ خلالهـا بعـض المـارة على دراجـاتهم الهوائية، لا ينظرون إلا نادرًا ناحية الغريبة التي بدت وهي تبكي كما لو

أنها لوحة خلابة، رفعت الغريبة رأسها ناحية مريم وقامت بسرعة بتجفيف دموعها ومسح وجهها بباطن راحتيها:

- لا عليكِ، أعلم أنهم في مكان أجمل الآن، لست الوحيدة التي فقدت عائلتها هناك، لكني لم أكن مستعدة لذلك، لقد دربت نفسي على الحياة كما لو أنهم معي الآن. أعلم أن عدل الله آتٍ لا محالة، ذلك هو العزاء يا مريم، العدل الذي يملأ قلوبنا طمأنينة ويعيد للكون اتزانه المفقود.

كانت مريم لا تزال تفكر بالعدل وتنتظره، هي أيضًا من مدينة تحارب ليلًا ونهارًا لأجل تلك القيمة.

ساد الصمت الثقيل للحظات ثم قالت الغريبة:

- سأتركك الآن يا مريم، قد أخذت كثيرًا من وقتك، اعذريني، أرجوك أن تكتبي عن عائلتي أيضًا، أمي وأبي، أخي لؤي وأخواتي غيداء وهدباء.. لقد كنا سعداء في بيتنا الصغير، وكان بحر غزة الذي تعرفينه ملاذًا شاسعًا يا مريم، أكثر اتساعًا وعلوًّا من هذه الجبال. كان السير على رمله يعيد في روحي يقينًا عجيبًا، أنا لم أترك البلد مباشرة، بقيت عند عمتي حتى حصلت على منحة وسافرت، ولكني لست سعيدة هنا، ولذلك سأعود قريبًا، كان الوقت الذي قضيته هنا كافيًا

لأدرك أي وجهة هي وجهة روحي وأين يكون قلبي مزهرًا وحيًّا بعض الشيء رغم كل ما يحمله. ماذا يدريكِ، ربما نلتقي يومًا ما هناك، حينها لا بد أنك ستحتاجين اسمي لكي تناديني..

صدرت عن الغريبة ضحكة قصيرة، وبدت للحظات كما لو أنها ضحكة طفلة صغيرة.

انتبهت مريم إلى أن اسمها لا يزال مجهولًا إلى الآن.

- أنا احترمت رغبتك بعدم قول اسمك، ولكني سأكون ممتنة لو عرفته.

ابتسمت الغريبة وهي تنفض عن فستانها الغبار وهي تهم بالنهوض والمغادرة:

- اسمي نجلاء

ثم تابعت وقد طفا شيءٌ من الارتياح والتسليم، بل البشاشة، على صوتها:

- لم أكن أحبُّ اسمي كثيرًا، ولكني مع الوقت اعتدت عليه وأحببته، لطالما أحببت اسمك مريم. اعتنِي بنفسك يا مريم..

ولا تنسِ أن تعودي يومًا ما إلى تلك البلاد، صدقيني لا جدوى من الهروب من جراحنا هناك. لا جدوى أبدًا...

صحت مريم فجأة على حقيقة أنها قد لا ترى تلك المرأة مرة أخرى، اقتربت منها وأرادت أن تخبرها بكثير من الأشياء، أن تشاركها أيضًا خيبتها من محمد لكن الوقت كان ضيّقًا، الآن أصبحت الغريبة قبالتها تمامًا بعينيها الواسعتين البنيتين وشعرها المموج، هبَّت من عنقها رائحة ياسمين طري طازج ممزوج بملح من دمعها، كانت تلك هي آخر ذكرى ستحتفظ بها ذاكرتها عن ذلك اليوم. ستبقى صورة نجلاء في عين روحها إلى الأبد ممتزجة بالياسمين والدموع، رغم كل تلك الأفكار التي تزاحمت في بالها اكتفت بأن تعانقها عناقًا سريعًا وهي تهمس على عجالة ولكن بصدقٍ غامر:

- شكرًا.. شكرًا لك نجلاء..

بقيت مريم هناك تراقب الغريبة وهي تبتعد ثم تختفي في الأفق البارد إلى الأبد. بنت مدينتها وبنت أحزانها وبنت غربتها، والآن صارت شريكة أسرارها.

لوّح لها قلب مريم بـ"وداعًا". بقيت مريم مُسَمَّرة في مكانها حتى انتبهت إلى حرارة الدموع تغسل وجنتيها، كانت الشمس قد غرقت

تمامًا خلف الجبال. حان الوقت لكي تنطوي ذكرى ذلك اليوم، ولكي تمضي مريم عائدةً محمَّلةً بكل تلك الحكايات وحدها مجددًا.

زمن من خلاص 2023

ريتا

هناك في طريق ضيّقٍ يأخذ الأحلام على أجنحة العصافير شمَّتْ ريتا رائحة تعرفها، نظرت إلى الأعلى حيث كانت السماء في منتهى الزرقة فوقها فوق الممر الضيق، وعلى جانب المشهد غطت أغصان الأشجار حافة السماء، يا إلهي! كم كانت الرائحة قوية، توقفت ريتا بشكل تلقائي ونظرت حولها مليًّا، ولكنها لم تجد أحدًا من المارة قد يعبر وهو يضع عطرًا، لقد مضى على عودة ريتا إلى غزة ما يقارب العام، الآن نسيت شوارع ألمانيا واللغة الثقيلة التي مارستها لسنوات، كل ما فعلته هناك بات ضبابيًّا غائمًا واستوطن فقط الهامش الصغير من حياتها التي شعرت على نحوٍ غريب أنها على وشك أن تبدأ الآن فقط.

تتذكر من حين لآخر سيرها في البرد والطرقات، تتذكر ألم الشوق والنار التي تهب في الضلوع هناك. لقد حدث أمرٌ غريبٌ لقلبها، ففي اللحظات التي لمست فيها قدماها أرض البلد شعرت لأول مرة منذ سنين بالحياة، هناك ما قد تفتح مثل وردة في قلبها، لقد كانت سنة من الامتنان لريتا.

كانت لا تزال ريتا تسيرُ في الممر الضيق، تسمع صيحات الأطفال والسيارات المارة في الشارع الرئيسي قُبالتها، والذي يبعد عنها عدة أمتار. لقد سمَّرتها الرائحة تمامًا، ثم فجأة تذكرت ريتا أمرًا ما، ووجدت بفرح لتلك الرائحة مسمًّى، كانت رائحة شجرة ليلة القدر، تلك الشجرة التي اعتادت أن تشتم رائحتها عندما كانت تعود مع أمها ليلًا من بيت عمهم إلى المنزل، عادت صورة الطفلة وهي تستفسر من أمها عن سر تلك الرائحة الأخَّاذة إلى ذهنها وابتسمت، تجيبها أمها وهي تمسك يدها بأنها رائحة ليلة القدر، وما أشبه الشعور الذي تخلقه تلك الرائحة في النفس بشعور تلك الليلة من شهر رمضان، سلامٌ حتى مطلع الفجر.

تنشقت ريتا تلك الرائحة عميقًا، وابتسمت بينما تابعت سيرها نحو الشمس، كانت في طريقها إلى مسجد الحي حيث تداوم على حفظ القرآن منذ أن عادت إلى غزة.

مسجد الحي جميل، له مئذنة خضراء. أمام المسجد يوجد دومًا بعض الباعة المتجولين وبعض الأطفال الذين يلعبون كرة القدم في الساحة المقابلة.

بينما أخذت ريتا تقطع الشارع الرئيسي ناحية المسجد شعرت بنفسها امرأة حقيقية، لا تعرف كيف اختارت هذا الطريق، ولكنها تعرف جيدًا أي خلاص نالته بقرار عودتها وارتدائها الحجاب ثم التفرّغ للعبادة. حينها فقط استطاعت ريتا أن تغفر حقًّا لكل من آذوها وتسامح هذه الدنيا وترضى بنصيبها منها كما أراد الله.

المدينة المشمسة المليئة بكل الأصوات وكل أشكال المشاعر احتضنتها من جديد، على باب المسجد شاهدت ريتا بائع الترمس، طفلًا في العاشرة من عمره بحذاءٍ مهترئ، يداوم على الوقوف على باب المسجد، لقد داومت ريتا على الشراء منه، وكانت تحظى منه دومًا بابتسامة خجولة وبنظرة حالمة للغد. في غربتها كلها لم تتعثر ريتا بمثل تلك النظرات، طفل يطل على الغد بخجل. هناك في المدينة من البساطة ما يجعل المرء حيًّا وما يجعله قادرًا بطبيعة الحال على النسيان والتجاوز والمُضيّ قُدمًا في الحياة.

ألقت ريتا تحية الإسلام على الطفل، ودخلت المسجد تاركة خلفها على عتبة الباب كل شيء دنيوي آذاها وجرحها عميقًا، كل الكلمات وكل المظالم التي صفعتها، ولكنها لم تنَلْ منها.

صدح الأذان، بكت ريتا، أغمضت عينيها، تركت التكبير يتخلل روحها، شعرت بالامتنان في كل نبضة وفي كل نفس.

لقد صار الماضي خلفها تمامًا.

زمن من خلاص 2023

مريم

نظرت مريم مليًّا إلى نفسها في المرآة، كانت تبدو غريبة في ذلك الفستان الأبيض، لقد شاهدت كل صديقاتها يرتدين الفستان الأبيض ويتزوجن، ولكنها لم تبكِ إلا عندما شاهدت نفسها ترتديه، بكت دموع الفرح وشعرت بحنانٍ غريبٍ يربت على كتفها بعد كل سنوات الشقاء والحرمان.

لا تزالُ وحيدة في الغربة، ولكن قلبها يراوده -ولو من بعيد- ذلك الفرح وهي ترى نفسها في المرآة تشبه أميرة تائهة في صحراء الزمن.

بعد غدر محمد بها لم تتخيل أنها ستتزوج بعد ذلك أبدًا.

- أبي، هناك شخص التقيته هنا، وهو يريد أن يطلب يدي منك؟

تلعثم صوت والدها على الهاتف وقد جعلته الصدمة يطرح كل الأسئلة دفعة واحدة، ولكن مريم لم تسمع من كل تلك الأسئلة سوى سؤال واحد:

- ومحمد؟ ماذا حدث معه؟

لم تتفاجأ مريم أن والدها كان يعلم، فقد كانت ساذجة ليبدو على وجهها كل ذلك الحب والخجل كلّما رأته في الحارة، ثم أن تدّعي غير ذلك. كما أن أباها كان ذكيًّا بما فيه الكفاية ليلاحظ ذلك.

لم تمتلك مريم الجرأة لتخبر أباها أن محمدًا قد تزوج، أنه قد استغلها في بداية هجرته في إرشاده ومساعدته ثم تركها فورَ أن وقفَ على قدميه واشتدّ ساعده. لم تستطع أن تخبر أباها أنه أصبح ككثيرٍ من الشباب الذين يفقدون جوهرهم عندما يغتربون وينسون أصولهم. كما أنها لم تخبره مجددًا كما تخبره في كل مكالمة ممكنة أن وديعًا أخاها كان محظوظًا بإصراره على البقاء رغم ظروف البلد والمنزل الصعبة في غزة، لقد فعل ما هو صواب برفضه الغربة رغم حصول مريم على منحة له في الخارج. كان الكلام كثيرًا ولكنه ليس ضروريًّا الآن.

ابتلعت مريم ريقها وأجابت باقتضاب:

- لا أعرف، إن كنت تقصدُ ما كان بيننا فقد انتهى يا أبي...

كانت مريم قد التقت بشابٍ ألماني مسلم في تلك القرية، تعرفت عليه عن طريق صديقة، كان عاديًّا مهذبًا، ولكنه واضح وصادق، في

البداية لم يكن في قلب مريم ناحية هذا الإنسان سوى الحياد، الحياد المطلق، ولكن رغبة عاتية في قلبها أن تتجاوز القسوة جعلتها ترى فيه مع الوقت خلاصًا محتملًا.

في سنين اغتراب مريم حاول والدها أن يستعيد علاقته القديمة بابنته الوحيدة عدة مرات، ولكن مريم كانت تشعر بوَحدة لا تستطيع مكالمات الهاتف ولا الفيديو عبر المسافات أن تخمدها، لم يتوقف عن المحاولة، وهي حاولت أن تستعيد بصدق تلك العواطف تجاه أبيها، مرت السنوات جافة كما لو أن مريم يتيمة، المكالمات الأسبوعية لا تعيد شيئًا بُتر على أرض الواقع.

لقد شعرت مريم عندما شاركت والدها خبر خطوبة الشاب لها لأول مرة منذ سنوات بفرح والدها الصادق لها، بدا كما لو أنه يكبح دموعًا وهو يجيب:

- على بركة الله يا مريم، أنتِ لست صغيرة وتستطيعين أن تختاري الشخص المناسب لكِ بنفسك.

مسح دمعًا لم تره مريم وأضاف:

- لطالما انتظرت أمك هذا اليوم.

ارتعش قلب مريم لمّا سمعته يتحدث عن والدتها، لقد اعتقدت أنه قد ينساها الآن كما قد نسيها كثيرًا، كما نسيهم هم أنفسهم لفترة طويلة بعد زواجه الثاني، شعرت بالقهر يعتصر قلبها وانمحت فجأة سنون كثيرة من أمام ناظريها، وتذكرت بوضوح تلك الأيام القديمة عندما كانوا جميعًا معًا، تذكرت الشمس! الشمس مرتبطة في ذهنها بمدينتها، بالجروح، بالجرائم التي تحصل تحت الشمس، بالحقائق التي تولد من سواعد الشبان المقاتلين ووجوه الأطفال كالشمس، الشمس تجفف الدم المسفوح في الطرقات، الشمس التي كانت آخر ما شاهدته أمها يوم ماتت وهي تنتظر أرغفة خبز لأسرتها في ذروة الحرب، تذكرت بوضوح الشمس التي لطالما مسحت عن وجهها الأوجاع والأحزان.

- يا ليتها لسه عايشة. كان مصارش فيا أي إشي..

ومرة أخرى تحارب مريم الدموع، نسيت موضوع الزواج لوهلة، ثم فجأة تذكرته فعادت إليه كمن يتعلّق بخيط يشده للواقع مجددًا:

- سأعطيه رقمك كي يكلمك، هو لا يعرف سوى الألمانية والإنجليزية، دع وديعًا يساعدك..
- على بركة الله.

وما إن غاب صوت والدها حتى شعرت مريم بوحدة قاتلة، ارتدت ملابس الرياضة وخرجت هاربة من ذلك الشعور، أخذت تركض لساعات وساعات. لا بد أن تتركها الوحدة لشأنها يومًا ما. لا بد لرحمة الله أن تتنزل عليها دفئًا وأُنسًا.

كانت الشمس آخذة بالمغيب، وفجأة حدّقت مريم ناحية الشمس الغاربة وتوقفت وقد افتقدت ريتا جدًّا، لقد كان الوقت شبيهًا بهذا الوقت عندما شربت معها الشاي للمرة الأخيرة قبل أن ترحل.

- ريتا.. أين أنتِ.

علا صوت عصفور فوقها، كان يغرد بصوت جميل وعذب، مسحت مريم دموعها وابتسمت لجمال الطبيعة، الطبيعة الحيادية والقوية، تبقى جميلة وبهية رغم تعاسة الإنسان حولها وفيها..

- لا أرفض بشكل قاطع يا ريتا، أنا لا أريد أن أصاحب إنسانًا في الحياة فقط كي لا أبقى وحيدة، هل تفهمينني، لقد ظلمت في هذه الحياة، ظلموني من وجدوني وحيدة واستغلوا وَحدتي وشوقي للأُنس والبيت، يكفيني يا ريتا، وكذلك لا أريد أن أظلم إنسانًا آخر...

حتى في أحلك الخيارات كانت مريم تعود لريتا -وإن كانت بعيدة جدًّا عنها- حتى تستشيرها.

- اسمعيني يا مريم، الزواج إن كان صادقًا وبنِيَّة صافية أمام الله، فإن الله سيباركه، وبالبركة يأتي الحب ويأتي كل جميل بعدها. امنحي نفسك فرصة، إذا كان شخصًا يعرف الله حقًّا، فسيعرف أيضًا كيف يرعاكِ.

لكن مريم كانت مترددة جدًّا وأرادت أن تبكي، كتمت دموعها عميقًا في قلبها وأجابت ريتا، الآن وصوتها يأتي من مدينتها البعيدة ممزوجًا برائحة البحر والموج:

- لكن يا ريتا ليس هذا ما كنت أحلم به، هل نحن بهذا البؤس كي نقبل بأي شيء في الحياة؟
- عندما لا تمنحنا الحياة خيارات أخرى.. نعم.. نعم يا مريم، أنا لست انهزامية، ولكني تعلمت أن القدر الذي يكتبه الله لنا لن نستطيع تغييره، وعلينا مع الوقت أن نرضى، وعندما نرضى فسنكون سعداء.
- ولكنك تنظرين للأمر فقط من منطلق ديني، ولكن انظري إلى كل الثنائيات السعيدة، المرأة التي تلف عنق زوجها في الكاميرا، الضحكة التي تعلو وجوههم وهم يرقصون في أعراسهم، أنا

إن لـم أكـن سـعيدة في فرحي فكيـف سـأبدو يـا ريتـا لاحقًـا في الحياة؟ كيف سأظل صادقة؟ وأنا التي عاهدتُ نفسي ألَّا أحيا إلا بالصدق.

وانفجرت باكية...

كانت مريم في تلك اللحظات تحاول أن تخبر ريتا أنها تنتظر عوضًا يليق بصبرها، أنها لا تقل عن هؤلاء، لا تقل عن النساء السعيدات، حاولت أن تشرح لريتا أنها بحاجة إلى الحب كي تنسى محمدًا، إلى الحب، وليس إلى الزواج وحسب.

- ذلك وَهْمٌ يا مريم.. تذكري ما قاله الله: "وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ"... أنتِ لا تعرفين شيئًا يا مريم، تتخيلين عِوض الله صورًا ومشاركاتٍ في مواقع التواصل، وفرحًا ورقصًا، بينما عِوض الله غير ذلك تمامًا..

هدأت مريم قليلًا وسألت صديقتها:

- وماذا يكون إذًا؟

- بالطُّمأنينة.. يا مريم.. العِوض يكون ذلك الرضا وتلك الطمأنينة التي لا تلتقطها عدسات الكاميرات ولا تترجمها العبارات.

ثم تابعت:

- عمومًا، فكِّري مليًّا، وكما قلت، امنحي نفسك فرصة، هناك في بلاد الغربة ليس أندر من أن تجدي الصالحين حقًّا. في النهاية تذكري أني أتمنى لك كل الخير يا مريم.

دارت مريم دورة كاملة وابتسمت في المرآة لتلك العروسة الطيبة التي وافقت على شخص لم تحبه كما أحبت محمدًا، ولكنها ربما تستطيع أن تريح رأسها على كتفه، ربما تستطيع أن تلتمس في عينيه حنانًا وحبًّا يومًا ما. سمعت المطر يهطل في الخارج، ألصقت وجهها على زجاج النافذة كما كانت تفعل وهي صغيرة، ثم شعرت في قلبها بالفرح.. يا إلهي! ما أرقَّه من شعور! وما أصعب وصفه!

أحست مريم بدفء الدموع على وجنتيها. وكانت تلك بداية حياة مريم الراضية برفقة زوجها في ألمانيا، ولاحقًا في غزة، فبعد أشهر من ارتباطهما قرر زوجها الذهاب هناك والقيام بتأسيس مشروع تطوعي لمساعدة المحتاجين، وما كان من مريم إلا أن عادت معه، هناك حيث البحر ووديع ورائحة البلاد الصافية.

زمن من خلاص 2023

الغريبة

الشمس تغرب حنونة على شاطئ البحر، ترى نجلاء في البعيد العديد من الأطفال الذين يمرحون، تصل صيحاتهم إلى قلبها فتبتسم، ينتابها أمان جارف في هذا الكون، الهواء يملأ رئتيها برائحة الملح، تعبر في ذاكرتها صور الأمس في ألمانيا، تتذكر كل ما حدث هناك كصورٍ من سراب.

صوت الباعة المتجولين، صيحات البؤس في المدى، أصوات المساجد القريبة، تغلق نجلاء عينيها وتحلمُ بعائلتها الذين راحوا تحت تراب المدينة، وتشعر بأرواحهم تحوم حولها في حياةٍ أخرى برزخية، لكنهم قريبون.

تتنهدُ كلما تذكرت قرارها المفاجئ بالعودة، في رحاب هذه الأرض حيث يمتزج الدم بأحلام السلام، الفقد الذي يسكن القلوب وطوفان من الحب والحنان لا ينضب، هنا حيث يصير الإنسان كائنًا صاحب إرادة حديدية وفي نفس الوقت عاجزًا كل العجز أن يرد إلى قلبه الراحلين عنه، هنا في هذه المدينة الصغيرة تولد كل المتناقضات. تولد

الأحلام وتموت أحيانًا كأحلام لميس وهاجر وأحيانًا تولد وتزهر كحلم مريم، وأحيانًا أخرى تولد الأحلام من موت وفناء كحلم ريتا.

مسحت الغريبة دمعها الجارف وهي ترى غروب الشمس، أي رحمة كونية هي تلك التي تشعر بها الآن، أيُعقل أن يكون الخلاص واضحًا وبسيطًا إلى هذا الحد، أي يكون الخلاص بالعودة إلى هذا البحر، إلى هذا النبع؟

غربت الشمس تمامًا.. علا صوت أذان المغرب.. في البعيد سمعت صوتًا يناديها، التفتت فرأت امرأة جميلة بصحبة رجل طويل القامة... لم يستغرق الأمر منها سوى دقيقة واحدة لتعرف وجه تلك المرأة الذي بدا سعيدًا ومرحًا وهي تهتف باسمها "نجلاء!"

نهضت ونفضت الرمل عن فستانها، دمعت عيناها لرؤية ذلك الوجه مجددًا، ومن ثم ضحكت بصوت عالٍ وهي تقترب نحوها وتحتضنها وهي تردد بصوتٍ متلعثمٍ غمرته سعادة الصدفة:

- هذا أنتِ يا مريم!

العابرون الذين مرّوا بمريم ونجلاء حينها لا بد أنهم اعتقدوا أنهم يمرّون بصديقتين أو أختين لم تلتقيا منذ زمن، في الحقيقة كان دفء المدينة وحضنها هو ما أبكى مريم ونجلاء، العودة بحد ذاتها، وذلك

الخلاص المشترك، ورائحة قدوم الليل التي غمرتهما هو ما سبَّب ذلك الدفق من المشاعر المختلطة. لقد بدا لأعينٍ تراقب المشهد من بعيد أن الرضا قد وجد طريقه الأبدية لتلك القلوب التائهة.

سطعت النجوم فوق البحر الذي اتَّشح بالسواد، ولا تزال مريم ونجلاء تفترشان الرمل وتتحدثان، والمدينة بأكملها تنتظر، تنتظر الأقدار القادمة والأيام القادمة بكل أمل.

النهاية

2023

روابط مهمّة لكل كاتب، ستساعدك على تنمية مهاراتك الكتابية.

شروط النشر في دار بسمة للنشر الإلكتروني

اشترك في النشرة البريدية الآن

اسأل سؤالك هنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَة والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الإهداء 6
زمن من ضباب 2021 8
زمنٌ من حلم 2012 19
زمن من شمس 1989 28
زمنٌ من حلم 2013 32
زمن من شمس 1987 37
زمن من غدر 2021 42
زمن من غدر 2022 - الغريبة 48
زمن من غدر 2022 - الغريبة 59
زمن من خوف 2006 66
زمن من حلم 2013 72

زمن من شمس 2009 77
زمن من غدر 2022 – الغريبة 80
زمن من ضباب 2021 104
زمن من غدر 2022 110
زمن من حلم 2020 115
زمن من غدر 2022 129
زمن من خلاص 2023 134
زمن من خلاص 2023 138
زمن من خلاص 2023 146

آية كامل رباح

طبيبة وكاتبة ولدت وعاشت في غزة-فلسطين، مواليد 1993، نشرت في عدة مواقع ومجلات عربية ودولية، نشرت رواية "لأن الحب لا يفنى أبدا" عن الدار العربية للعلوم ناشرون-بيروت عام 2020. تكمل حاليًا اختصاص الأمراض الباطنية في ألمانيا إلى جانب مواصلة حلم الأدب والكتابة.

لأجل زمنٍ بلا مُسمّى

تلك الأزمنة التي لا تشبهنا تجرفنا معها، تضغط على قلوبنا كي لا نجد مخرجًا إلا بأن نخلع عليها صفةً ومسمّى ما لنمضي قدمًا رغم ثقل الذكريات، لنجترع الغصّة ونواصل الحياة.

في زمن ضائع تلتقي شخصيات هذه الحكاية ويولد من هذا اللقاء حكايات قديمة، كلها لا تُنسى، كلها تعود للحياة مجددًا في غربة تطحن الروح لتعيد تلك الحكايات أبطال هذه الرواية مجددًا للوطن وهم يحلمون بزمنٍ حانٍ ورحيمٍ كشعاع بارد، كطريقٍ طويل وسماءٍ مشرعة لكلّ أمنيات المثكولين حيث يكون زمنًا مجرّدًا من ثقل الذكرى ووجع المسميات.

bassmabook
00212771814934
bassmabook@gmail.com
دار البسمة للنشر الإلكتروني